نجيب محفوظ

قصص قصيرة

يُوزّع مجّاناً مع العدد (114) من مجلّة «الدوحة» - إبريل - 2017

عنوان الكتاب: قصص قصيرة

المؤلف: نجيب محفوظ

الناشر :
وزارة الثّقافة والرياضة - دولة قطر
رقم الإيداع بدار الكتب القطرية :
الترقيم الدولي (ردمك):

العمل الفني للغلاف: صورة للكاتب نجيب محفوظ
الإخراج والتصميم: القسم الفَنّي - مجلّة الدوحة

المواد المنشورة في الكتاب تُعبِّر عن آراء كُتَّابها، ولا تُعبِّر -بالضرورة- عن رأي الوزارة أو المجلّة.

نجيب محفوظ

قصص قصيرة

(نصوص من أرشيف مجلّة الدوحة)

كتاب الدوحة

الرجل الثاني

(مجلّة الدوحة - أبريل - مايو - يونيو/ 1979)

الرَّجُل الثاني

1

جذبني مقهى النجف في سنّ المراهقة. كانت سنّاً يُستهجن فيها غشيان المقاهي. الحقّ، لم يجذبني المقهى نفسه ولكن شدّني- بقوّة سحرية- صاحبه «موجود الديناري»، الأسطورة الباقية؛ إنّه آخر الفتوّات غير أنه بالقياس إليَّ أوَّل الفتوّات، وآخرهم. ذهبت لأحظى بمشاهدته فوق أريكة الإدارة، في شيخوخته المجلّلة بالمهابة والقوّة والجمال. اخترت مجلساً بعيداً عن مجلسه، منعني الإكبار، وجاء بي، دوماً، ما استقرّ في قلبي من حكايات فَتْوَنَته، سحرتني أكثر نوادره الغامضة التي تضاربت حولها التفاسير. طالما شعرت، وأنا أحتسي قرفته المخلوطة بالمكسّرات، بأنني أعيش أبهج ما في الماضي والحاضر والمستقبل.

***

يحكى أن..

يحكى أنه ألقى على أتباعه، ذات يوم، تحدِّياً: عند الفجر من سهرة في

غرزة المنارة المسقوفة بالسماء، قلّب عينيه في وجوه الرجال فلم يبرح أحد مكانه. تبدّت وجوههم غامضة على ضوء النجوم. تبدّت وجوههم ذابلة من شدّة السطول. تبدّت وجوههم مخضلّة بالندى. في فصل صيف، شَهِد له الآباء بالغلظ، قال لهم:

لن ترجعوا إلى بيوتكم قبل أن تسمعوا.

تطلّعوا إليه باهتمام، جاهدوا نعاس الخدر، توقَّعوا نبأً عن معركة. «موجود الديناري» قهقه حتى سعل. قال، بتؤدة أضفت على بنيانه القويّ وملامحه الواضحة جدّيّة مثيرة:

إنكم تتساءلون..

اشتعلت اللهفة، ونفد الصبر، فواصَلَ الرجل:

ما من جماعة مثلنا إلّا وفيها رجل ثانٍ، على ذلك جرى عُرْف من غَبَر...

ندّت عن «طباع الديك» حركة عفوية، داراها بسعلة مصطنعة، لم تغب عن عين الرجال ولا عين الرجل. كان أقوى الأتباع وأشجعهم، وإن لم يجهر بذلك أحد، وطالما اعتقد أن المنزلة الثانية بمثابة حقّه المعتبر. تساءل المعلِّم:

ما رأيكم؟

أكثر من صوت أجاب:

الرأي ما ترى، يا معلِّم.

- كلّكم أقوياء، كلّكم شجعان، ولكن الفَتْوَنة الحقّة لا تستند إلى القوّة

والشجاعة وحدهما!

عند ذاك، قال «طباع الديك»:

منك تعلَّمنا- أيضاً- مكارم الأخلاق...

فابتسم المعلّم ابتسامة غامضة، وقال:

دعونا من الكلام، عندي مهمّة، فمن منكم يقبل القيام بها؟

فبادروا قائلين:

نحن رهن الإشارة!

وتساءل «طباع الديك»:

ما هي المهمّة، يا معلّمي؟

فقال الديناري باسماً:

إنها سرّ من الأسرار.

همدت ألسنتهم، تذاكروا ما عُرف عنه من غرابة الأطوار، تذكّروا الغموض الذي يخالط وضوحه، حذروا- بغريزتهم- أن يقعوا في شرك، لا قِبَل لأحدهم به. وسرّ الديناري بصمتهم، فقال:

إنها تتطلّب، أوّل ما تتطلَّب، الطاعة العمياء!

وضح القلق في حركات «طباع الديك» المتوتّرة، ولكنه تجاهله قائلاً:

قد يحيق الهلاك بمن يتصدّى لها، لا يجوز إخفاء ذلك عنكم، فإذا وُفِّق فاز بالمكانة اللائقة، وإن هلك تعهّدتُ أهله بالعناية.

وخرج «طباع الديك» من صمته، فقال:

يا معلّمي، لقد خدمتك منذ..

ولكن المعلّم قاطعه متسائلاً:

من منكم يقبل المهمّة؟

من غشاء الصمت الثقيل، انطلق صوت يقول:

خدّامك يا معلّم!

تحوّلت الأبصار، بذهول، نحو «شطا الحجري»؛ فتى جاوز العشرين بعام أو عامين، أحدثُ من انضمّ إلى العصابة، لم يشترك، بعد، في معركة، قُبِل بناءً على تزكية من «طباع الديك» نفسه. وجزع «طباع الديك»: إنه في الحلقة الرابعة من عمره، ويصغر معلّمه بعام واحد، ورغم سوء ظنّه بالمهمّة، وحَذَره من مقالب معلّمه، فقد خاف أن تفلت منه فرصة العمر؛ لذلك هتف:

لا أحد لها سواي.

فقال المعلّم بهدوء:

إنه «شطا الحجري».

- ولكنه...

فقاطعه المعلّم:

لقد سبق، ولا حيلة لك.

غشيت الصمتَ كآبة. أيصير «شطا الحجري» الرجل الثاني، إذا لم يهلك؟ ترى ما هي المهمّة؟ هل أنقذهم الخوف أو ضيّعهم؟ أيهلك «شطا»، أم يفوز؟ وماذا لو تكشّفت المهمّة عن تكليف يسير لا يشقّ على أحد؟ لقد تمنّوا، في أعماقهم، أن يتقرّر الهلاك مصيراً لـ«شطا». وتلهّفوا على معرفة المهمّة، فتساءلوا:

لم يعد محظوراً أن تكشف لنا عن سرّ المهمّة، يا معلِّم.

فقال المعلِّم بمرح:

كلّ شيء مرهون بوقته.

وقام الرجل، نافضاً عن عباءته ذرّات الرماد، ومضى نحو الحارة وهو يقول:

- تناسوا ما دار بيننا في هذه الليلة الحارّة، فلا شأن لكم به!

2

توارى المعلّم عن الأعين. لزم الرجال أماكنهم من شدّة الذهول. وجد «شطا الحجري» نفسه في بؤرة منصهرة بحرارة الأبصار والصيف، أراد أن يخرج من الحرج بكلمة اعتذار، فقال:

أعترف بأنني مازلت أحبو في الذيل، ولكنها إرادة الله.

فقال رجل مغلِّفاً قوله بنبرة نذير:

بل اخترت بإرادتك، يا «شطا»!

فقال في استسلام:

إنما يجري كلّ شيء بمشيئة الله.

فقال آخر بخشونة:

للشيطان- أيضاً- دور في رحاب الفَتْوَنة.

فتغيّر مزاج «شطا»، وقال بعناد:

لقد أعددت كفني يوم انضممت إليكم.

فتلاطمت أصوات في سخرية:

عفارم.. عفارم! الطموح مهلكة، ولكنه حلم الفتوّات!

ضاق «شطا» بصمت «طباع الديك» أكثر ممّا ضاق بسخريات الرجال. استأذن ناهضاً، ثم غاص في الظلمة.

استقبلته أمُّه في بدروم عمارة الجبلي. «ستّهم» الشهيرة بـ«الغجرية»- تستيقظ عادةً- مع الفجر، لتتهيَّأ ليوم عمل كادح. قال:

حدث الليلة أمر عجيب...

وقصّ عليها ما جرى. عكس وجهها المتجعّد الكالح انفعالات متضاربة، تفكّرت حتى وجمت، ثمّ قالت:

يا لك من متعجّل!

فتحامى الجدل، فقالت:

إنك لمجنون يتحدّى الجميع، بلا تدبُّر.

فاتَّجه نحو منامة فوق الكنبة، صامتاً، فقالت:

لم يبقَ لي من ذكر سواك، أخواتك في بيوت أزواجهنّ. لعنة الله على شيطانك.

فتمتم بامتعاض:

لا تتوقّعين إلّا الشرّ!

- أتحسب أن الفَتْوَنة لهو؟!

رغم قلقه واضطرام أفكاره، فقد أسلمه الإرهاق إلى نوم عميق.

3

استيقظ «شطا الحجري» عند الضحى، اجتاحته ضوضاء الحياة. مازال الصيف يزفر ناراً، استيقظت معه ذكريات الليل. لم يلقِ إليه المعلّم بأيّة إرشادات. هل ينتظر حتى تجيئه إشارة؟ كلّا، عليه أن يتحرّك. ليتحرّك

حتى لا تنفرد به الأفكار. قرّر أن يذهب إلى دار «الديناري». أوّل مرّة يعبر البّوابة العملاقة. اخترق فناءً واسعاً. إلى اليمين مُجمَّع نخلات مثقلة بالبلح الأحمر، وإلى اليسار إصطبل. سُمِح له بالانتظار في منظرة. طالعته في الجدار الأوسط بسملة مذهّبة تشرف على الأرائك والبساط السنجابيّ. حتى أذان الظهر انتظر، ثم جاء الرجل. خيّل إليه أنه يرى رجلاً آخر. لأوَّل مرّة يرى شعر رأسه الأسود، ولأوَّل مرّة يخطر أمامه في جلباب فضفاض أبيض، أمّا رائحة المسك فهي، دائماً، تنتشر منه. تربّع فوق الكنبة الوسطى، ثم أشار إلى الأرض قائلاً:

اجلس.

فتربّع على مبعدة قصيرة من موطئ قدميه، ثمّ قال كالمعتذر:

جئت بلا دعوة.

قال، ووجهه لا ينمّ عن شيء:

لو لم تفعل لاعتبرت الأمر كأن لم يكن.

فحمد الله في سره على أوّل توفيق يصيبه، وسأله الرجل:

ماذا قال الرجال أمس، عقب ذهابي؟

– اتّهموني بتجاوز الحدّ.

– هي الحقيقة، بالقياس إليهم هم.

فحمد الله في سره مرَّةً أخرى، على حين رجع المعلّم يسأل:

ماذا عن أمّك الغجريّة؟

– قلقة وخائفة.

– لو لم تقدم لاتّهمتك بالجبن!

انقطع الكلام قليلاً حتى قال «شطا»:

إنّي رهن إشارتك.

فمدّ ساقيه قائلاً:

دلِّكْ ساقيّ.

فشمّر «شطا» عن ساعديه، وراح يدلِّك الساقين المدمجتين، بارتياح وفخار. تواصل الصمت، حتى تساءل المعلّم:

ما الذي دفعك إلى القبول؟

فبادره «شطا» بحماس:

أن أحظى برضاك.

– كاذب، أو نصف كاذب، إنه الطموح، ولكن لا فَتْوَنة بلا جنون.

لم يدرِ ماذا يقول. ترامت من بعد صيحات الغلمان ونداءات الباعة وحوار النساء، ثمّ تساءل المعلِّم:

مستعدّ؟

- رهن الإشارة.

فقال الرجل بوضوح:

اغتسل، ارتدِ ملابس جميلة، اعثر على أجمل بنت في الحارة، ثمّ اذكرها لي!

ثقلت يداه، وأوشكتا أن تتوقّفا عن التدليك. ما سمعه لم يتوقّعه قطّ. ظنّ المهمّة مغامرة، لا يطيقها إلّا الأفذاذ. ما تصوّر أن تكون مهمّة (خاطبة)! بل (الخاطبة) أشرف. لا يمكن أن تقتصر المهمّة على ذلك؛ ما هي إلّا مقدّمة لاختبار الطاعة. الحذر.. الحذر من التردّد. الطاعة أو الضياع. ما يعرف من قسوته مثلما يعرف من مكارمه. إنّه- ولا شكّ- لم يقل كلّ شيء، فلينتظر. لكن وجهه لا يَعِدْ بمزيد! أخيراً، تساءل:

أهذه هي المهمّة، بلا زيادة؟

قال المعلِّم ببرود:

لا أسمح بأيّ سؤال.

تركه يدلِّك ساقيه في صمت، ثمّ سحبهما قائلاً:

مع السلامة.

4

وهو يغادر الدار، شعر بالندم، بل بالغضب. ربّما ضرب، يوماً، مثلاً للحماقة والسخرية. الفتى الذي طمح إلى السيادة، فعمل (خاطبة)، أو

قوّاداً ذا قرنين. وسيكون نادرة أخرى إذا هرب، ولكنه وعده بالمكانة الثانية إذا نجح، وهو الوفاء إذا وعد، فكيف يشكّ في جدارة العمل؟ إنه لأحمق إذا تهاون مع سوء الظنّ. إنها محنة حقّاً، ولكن وراءها ما وراءها، فليصمد، وليصمد، وليمحق الريب.

وسألته أمّه «ستُّهم الغجريّة»، بلهفة:

خبّرني ما هي المهمّة؟

أجل إن المعلّم لم يكلِّفه بالكتمان، ولكنه شعر بأن الأمان في الكتمان. والكرامة- أيضاً- تلزمه به. فليُذِعْه المعلِّم، إن شاء أن يبلوه. لذلك قال:

الأسف والمعذرة.

فصرخت المرأة:

من يُخفِ عن أمّه سرّاً، فهو ابن حرام.

وهتفت، أيضاً:

أنت وشأنك، ولتتجرّعنّ الندم.

وقال لنفسه: «تقدّم بلا تردُّد». ذهب إلى حمّام الأمير، وأسلم جسده إلى المغطس. ارتدى جلباباً جديداً، ولاثة منمنمة، ومركوباً أخضر، ومضى منوّر الشباب كالبدر. استحال عينين حذرتين، تسعيان وراء الجمال حيث يكون: في النوافذ، عند صنبور المياه، في سوق الخردوات والحليّ. كلّما لمح حسناً سجّله في ذاكرته، وواصل السعي. وصادف في سعيه

رجالاً من العصابة يراقبون، ويتساءلون. ضاعف من حذره، مطمئناً إلى أنهم لم يقفوا على سره بعد. تمنّى أن يحافظ المعلّم على السرّ كما يحافظ عليه هو. تمنّى أن يعثر على ضالّته حتى تنجلي الحقيقة عارية. أجل، ستنكشف مهمّة (الخاطبة) عن المجد لا الندم.

وكان يستريح في مقهى النجف عندما جلس إلى جانبه «طباع الديك». انقبض صدره، ولكنه ابتسم. هو الذي زكّاه عند المعلّم يوم قُبِل. صديق أسرته الذي يعتبر «ستُّهم الغجريّة» أمّاً له. قدّم له الشاي حبّاً وكرامة. ابتسم الرجل، وقال:

أصبح لك مظهر الوجيه لا الفتوّة!

إنه يستدرجه، ولكن هيهات. وتمتم الرجل:

لا تستقرّ في مكان!

بادله الابتسام، دون أن ينبس، فقال «طباع الديك»:

لا أريد إحراجك، هذا أوَّل ما تطالبني به علاقتنا الطيِّبة.

فتمتم «شطا»، بأسف:

معذرة يا صاحب الفضل.

- إني عاذرك، ومقدّر لحالك، ولكن واجبي، كصديق للأسرة، يطالبني بأن أحذِّرك...

- تحذّرني؟

– معاذ الله أن أحرّضك على إفشاء سرّ، ولكنك حديث عهد بنا، فلا تعرف فتوّتنا كما أعرفه.

فقال «شطا»، بصدق:

– الحارة كلّها تعرفه.

– لعلّها لا تعرف مثلي حُبّه الدعابة والعبث...

ارتعد قلبه، ولكنه قال بقوّة، يغطّي بها ارتعاده:

الدعابة لا العبث، إنه جادّ كلّ الجدّ...

– لِمَ صفح عن زميلنا الأعجر؟ ولِمَ أصرَّ على عقاب «شعراوي القفا»؟

ارتعد قلبه مرّة أخرى، ولكنه قال:

ثمّة سبب يعلمه، ونجهله. إنه أبعد ما يكون عن العبث.

– إذا أردت الاستشهاد بالأدلّة فستجد ما يؤيّد جدّيّته، وستجد ما يؤيّد عبثه.

– لا، لا تَقِسْ ما يقع في حارتنا بما يحدث، أحياناً، في الغرزة.

– ولكن المغامرة التي تقدّمت لها حدثت في الغرزة!

فقال مجاهداً غيوم القلق:

لكن نتيجتها ستُطَّبق على الحارة!

– صدّقني يا «شطا»، لِمَ لمْ أُقْدِم على المهمّة، رغم إنني أجدر الرجال بها؟؛ حدّثَني قلبي بأنه يهيِّئ للعبث مقلباً!

هزّ «شطا» رأسه نفياً واحتجاجاً، فقال «طباع الديك»:

ثمّ إنه لا يتأثَّر بالعواطف، وهو قويّ، كما نعلم جميعاً، فَمن ذا الذي يضمن وفاءه؟ بل هَبْكَ هلكت– لا سمح الله– فلم يُعِنْ أمّك، فمن ذا الذي يحاسبه؟!

لزم «شطا الصمت» بنظرة رافضة، فنهض «طباع الديك» قائلاً:

الله معك!

فقال «شطا»:

هيهات أن تتزعزع ثقتي به.

وأتبعه ناظريه، وهو يلعنه...

5

الوساوس والهواجس تخامره.. «طباع الديك» لا يذكر العبث بلا دليل. أجل، إنه مغرض وحاقد وخائف، ولكنه لا يهذي. على ذلك، فهو يصرّ على جدّيّة معلِّمه. رغم غرابة ما كُلِّف به، رغم الغموض المتعمَّد من الآخر. ربّاه.. ما العمل، لو كان يعبث به حقّاً؟! ما العمل، لو تبدّد الجهد نظير لا

شيء؟ ما العمل، لو تناثرت قوائم حياته فيما يشبه المزاح؟!

وهو يحاور نفسه، طالعه- فجأةً- وجه يمرق من الملاءة السوداء كالضوء؛ وجه نفّاذ الحلاوة، بهيج الأثر. ما تمالك أن قال لنفسه، وهو ينتفض بانتعاش غامر: «لعلّها هي». في الحال، تناسى وساوسه وهواجسه، وحلّ بقلبه الظفر. لعلّه رآها قبل ذلك، ولكنها عبرت في غفلته بلا أثر. سرعان ما تبعها عن بعد، على إيقاع تموّجاتها الراقصة. حتى عطفة البرادة، وحتى غيابها في عمارة ريحان المتهالكة. هي.. هي ضالّته المنشودة، فمن تكون؟ عليه أن يجمع المعلومات الكافية. الناجح من يحافظ على السرّ، ويجمع المعلومات الوافية. أُفعم قلبه بالإلهام والثقة، وحَلم بالمكانة الرفيعة الثانية. ودعا الله أن يتمّ المهمّة، دون مساس بكرامته. ومن حظّه السعيد لاحت في النافذة.. لمحها، ولمحته- أيضاً- بنظرة خاطفة. في العطفة، كوّاء بلديّ وبيّاع طعميّة، ولكنه تجنّب سؤال الأنفس المتطفّلة. استدرج غلاماً يلعب، فسأله:

يا شاطر من يسكن في الدور الثاني؟

فأجاب الولد:

عمّ طناحي بيّاع الطعميّة.

آه... ثمّة شبه بين الكهل والبنت الفاتنة. رجع إلى بيته مستوصياً بالحذر. ورغم ما بينه وبين أمّه من جفاء، سألها:

هل تعرفين أسرة عمّ طناحي، بيّاع الطعميّة؟

فتجاهلته حتى كرّر السؤال، فسألته بدورها:

لماذا تسأل؟

حديث دار، في المقهى، حول بنت جميلة له.

- زوّجت له بنتين، وبقيت الصغرى وداد، صغيرة، ولكنها أجمل البنات...

فقال مخفياً انفعاله:

ذاك ما قيل عنها.

- قل لمن يتحدّث إن الطائر قد حلّق في السماء.

- السماء؟!

- ما زال الأمر سّراً، ولكنّي الوحيدة، من غير الأسرة، التي تعرف أن معلّمك الديناري خطبها منذ أسبوع!

- حقّاً؟!

- حظّها السعيد، لا أهمِّيّة للسنّ، ولا لكثرة الزوجات! ابعد، إن كنت فكّرت في القرب.

إذن، قد خطبها الرجل قبل أن يكلّفه بالبحث عنها. ولكن، هل يغيّر ذلك من موقعه من المهمّة؟ عليه ألّا يضيّع وقته، وأن ينسى ما سمع.

6

قبع في مجلسه عند قدمي المعلّم، وراح يدلِّك ساقيه. الرجل يرتاح لذلك، وهو يجيده. مهما يكن من أمر العاقبة، فهو اليوم ألصق الجميع به، غير أنه لا يستطيع أن يقرأ وجهه. ألا ما أكبر الفارق بينه وبين البنت، في العمر والحجم وكلّ شيء! والرجل صامت، يضنّ بالسؤال، فعليه هو أن يتكلّم. قال:

عثرت على البنت المنشودة، يا معلّم.

بعد هنيهة صمت، قال الرجل:

انطق.

– الاسم وداد، كريمة عمّ طناحي، بالدور الثاني من عمارة ريحان القديمة.

– ألم تفُتْكَ فرصة؟

– كلّا.

– هل فطن أحد إلى مسعاك؟

– كلّا.

– الكتمان في صالحك أنت.

- حرصت عليه بحسن تقديري.

- إنك معجب بنفسك...

فتورّد وجهه الأسمر حياءً.. تفاءل بالصمت، ثمّ تساءل:

- انتهت المهمّة، يا معلّمي؟

فقال الرجل، بلا مبالاة:

- الآن، عليك بمغازلتها!

كأنما تلقّى ضربة على يافوخه.. هتف:

- مغازلتها؟!

قال الرجل، ببرود:

- مع السلامة.

في الخارج، لم يسمع صوتاً، رغم الضوضاء، لم يرَ أحداً، رغم الزحام، لم يُلقِ بالاً إلى متربّص. المهمّة تتعقّد، والمخاوف تتجسّد، والأشباح تتخايل. هاهو يحمل أمراً من معلِّمه بمغازلة خطيبة معلِّمه، وهو مطالب بإبلاغه بالنتيجة. هيهات أن تؤاتيه الشجاعة على الكذب. أهي طريقة لاختيار الرجل الثاني حقّاً، أم الأمر عبث في عبث؟ الليل تتكاثف ظلمته، وتتوارى نجومه وراء السحب.

7

وجد نفسه، بعد ذلك، بين اثنتين: الهرب، أو الصمود. قرّر أن يصمد. ليس وراء الهرب إلّا السخرية والضياع، أمّا الصمود فإنه يمارس فيه رجولته، وليكن بعد ذلك ما يكون. ربّما انتهى به الصمود إلى شماتة الحاسدين، ولكنّ الهرب ينذر بما هو أفظع. وكلّما تعقّدت الأمور، وانبهم المغزى على إدراكه، قال لنفسه مستهيناً: ليست السلامة بالغاية المفضّلة في هذه الدنيا.

وانطلق في أثرها، يخطّ بالقدم مصيره ومصيرها.

تعرّض لها في نافذتها، تبعها إلى دكّان الخردوات وهي بصحبة أمّها، وهَبَها عينَيْن حادّتين، وهي تمرّ أمام مقهى النجف. تطايرت نظراته الموشّاة بالبسمات الخفيّة معلنةً عن عاطفة لا وجود لها. وفي فرح شَهِده، وكانت وداد بين المدعوّات، قاربت بينهما نظرة طويلة، فغمز لها بعينه ملقياً بنفسه في فم القدر. إنها، الآن، تعرفه تماماً، وتخمّن مقصده، فليتها تغضب، ليتها تشي به عند والديها، فتنقذه من المجهول، وتنقذ نفسها. لكنها لم تغضب، بل مرحت في دلال، معلنةً محاسنها، كاشفةً عن استجابة واضحة. قال لنفسه بحزن: إنها لا تهمّها الفَتْوَنة، إنها تؤثر الحبّ على الجاه، إنها حلم الشباب المثالي.. واأسفاه.

ومضى في الطريق مستسلماً، لاغياً عقله. حتى ضمّهما، يوماً، زحام يُحدِق بالحاوي. تزحزح خفيةً، حتى استقرّ جنبها. ولمّا التفتت نحوه، همس:

– يا جميلة.

فالتفتت عنه في دلال، مشجّعةً على المزيد، فهمس:

- أقول إن جمالك...

ولكنها قاطعته هامسةً ومعلنة استجابتها، في الوقت نفسه:

- الناس... الناس.

- صدق من قال إنّ العاشق مجنون.

- أنت لا تعرف كلّ شيء.

فهمس متخطِّياً أشباحه:

أعرف أنك مخطوبة للديناري.

فرمقته بدهشة وإكبار، وهمست:

إنه سرّ.

- لكني أعرفه...

- لن تحظى بأحد يقبلك.

- المهمّ رضاكِ أنت.

فتساءلت متظاهرة بالتركيز على يد الحاوي، وهو يلاعب الحيّة:

- أيّ فائدة ترجى؟

– لنتقابل على انفراد.

– أمر عسير.

– الشمس تقترب من المغيب، زاوية الدرملي مكان آمن...

– ولكن...

– سأسبقك... لا تضيّعي فرصتنا الوحيدة.

ومضى نحو الميدان، ثمّ انعطف إلى الزاوية. اضطرب خافق القلب. ثمّة أمل ضعيف في أن يستردّها العقل في آخر لحظة، أن تتوب إلى رشدها وتندم.

لكنه رآها مقبلة، في شجاعة تثير الدهشة.

8

استغرق اللقاء الخفيّ دقائق معدودة في الركن المتواري المعتبر مأوى للمجاذيب. سألها:

– لديك فكرة عن الخطر الذي يتهدّدنا؟

فأجابت بثبات أكبر من سنّها بكثير:

– نعم.

– لا سبيل أمامنا إلّا الهرب، إلى الأبد.

فتمتمت:

– ليكن.

وبانتهاء اللقاء الأوَّل، انعقدت سحب التعاسة فوق رأسه. وقع في حفرة لم يقدِّر مدى عمقها، من قبل. غزاه صدقها وشجاعتها وبراءتها. صدّقته تماماً، وهبته قلبها النابض، وضعت مصيرها بين يديه. دهمته– أيضاً– استجابتها غير المتوقّعة. هاله الدور القذر الذي يمثِّله بمهارة فائقة. ألم يخشَ لحظات من جانب معلّمه العبث؟ هاهو يعبث بالطهارة والبراءة! لماذا؟ من أجل أن يعتلي الموقع الرفيع الثاني في جماعته. أيهون عليه– حقّاً– أن يتمّ مهمّته، فيدفع بالبنت إلى الهاوية؟ كلّا.. لن يكون، يوماً، من أهل ذاك المنحدر. وما أغراه بالانضمام إلى جماعة المعلِّم إلّا استزادة من الشرف. وهيهات أن ينسى نظراتها المحبّة الواثقة، ولا صوتها العذب، وهي تتمتم:

– ليكن.

هل يبيع ذلك كلّه من أجل مهمّة غامضة، كلّفه بها رجل عظيم حقّاً، ولكنه معروف بأطواره المحيّرة؟! كلّا، فليقدم على ذلك وغد من الأوغاد، لا رجل يهيم بالحياة السامية.

هكذا، جلس عند قدمّي معلّمه، وقد قرّر أن شرفه أعلى من المهمّة الغامضة.

9

قال، واعياً بإقدامه على ما هو أخطر من قبول المهمّة نفسها:

- البنت عاقلة، لا سبيل إليها!

فقال «موجود الديناري»، بهدوء:

- أنت كذّاب.

تطلّع إليه بذهول، مؤمناً بأنه قد انتهى. السرّ افتُضِح، وفاتَهُ أن يفترض ذلك. إنه لم يخنه، فقط، ولكنه أساء الظنّ- أيضاً- بقدرته، وانقلب أتفه من لا شيء، وراحت يداه تدلِّكان ساقي الرجل، بآليّة، في صمت ثقيل، حتى قال الرجل بجفاء:

- انطق.

فقال باستسلام:

- الصدق ما قلت، يا معلّمي.

- كيف غفلت عن أنني أمتحنك أنت لا هي!

فقال بأسًى:

- إني غبيّ، ولكنني لم أستطع أن أكون وغداً.

- فلنهنأ بالشهامة والعصيان!

فقال بيأس:

- أعترف بأنني أخفقت في القيام بالمهمّة.

فتساءل المعلّم بسخرية:

- ما هي المهمّة؟

- ما كلَّفتني به، يا معلّمي.

فصمت الرجل قليلاً، ثم قال:

- أقول لك- يا أعمى- استمرّ!

فتمتم «شطا» بذهول:

- أستمرّ؟!

- وأبلِغْني عن كلّ خطوة في حينها.

فاشتدّ الذهول بـ«شطا»، وتساءل:

أيعني ذلك أنني مازلت مكلّفاً بالمهمّة؟

فندّت عن يد المعلّم حركة تدلّ على ضيقه، وقال بحزم:

- اذهب...

10

إنه يغوص في الظلمات بلا مرشد.. خلا إلى نفسه في البدروم الذي تهجره أمّه، طيلة النهار، سعياً وراء الرزق. تجرّد من ثيابه دفعاً لحرّ ذاك الصيف. فليفكّر، وليفهم. لقد أخفق في المهمّة، واستحقّ غضب الرجل. كان عليه أن يدرك أن للمعلّم عيونه، أيضاً. لماذا- إذن- يأمره بالاستمرار، عوضاً عن أن يعلن فشله أو يُنزل به عقابه؟ أيمنحه فرصة جديدة؟ كلّا.. لا تُمَنّ نفسك بالأوهام. هل المهمّة شيء آخر غير ما وضح له؟ أيريد أن يخفّف من عقوبته، بعد أن خسر الثمرة؟ هل يسوقه إلى العقوبة من حيث لا يدري؟! ثمّة أمر يقينيّ، وهو أنه يتعمَّد إلقاءه في الحيرة. ما أعجزه عن الإدراك المطمئن! ولكن لا مفرّ من الاستمرار. إنه يفهم، الآن، مغزى تردُّد «طباع الديك»، رغم قوّته وشجاعته. أمّا هو فما أشبهه بلاعب السيرك الذي يترصّد الهلاك عند الخطأ. فليذهب إلى الموعد المرتقب. لن يخفى شيء عن الرجل. عليه أن يهتدي إلى ما ينبغي له فعله قبل أن تتبدّد حياته هباء.

***

وعندما أقبلت نحوه، قبيل المغيب.. عندما منحته ابتسامة اللقاء، نسي مخاوفه، استهان بالعواقب، محق شكوكه، غمره رضا وسلام، خفق قلبه بعمق، اكتشف أنه يحبّها. أجل إنه يحبُّها كما تحبُّه، وأكثر. لعلّه أحبّها من بادئ اللعبة وهو لا يدري. وفي ظلّ الحبّ، حظي باليقين. ومهما يكن من غموض معلّمه أو عبثه فقد هداه إلى الحبّ. عليه أن يدمجه في مصيره، ويحملهما معاً. لقد محاها مرضاةً لضميره، وهاهو الحبّ يلحق

بالضمير ويجاوزه. لا أهميّة، الآن، للمهمّة ولا للدفاع عن النفس ولا للبقاء في الحارة. الهرب... الهرب... إنه الحقيقة الباقية. تلقّاها بحرارة، وسط ضوضاء المجاذيب. يوجد- حتماً- من يراقبهما، ولكنه سيلوذ بالمفاجأة.

- أهلاً بك، يا وداد.

ثم، بجدّيّة بالغة:

- ليس لدينا وقت نضيّعه.

تساءلت بنظرة من عينيها السوداوين، فقال:

الآن، وجب الهرب.

فاضطربت متمتمة:

الآن؟!

- قبل أن تفلت الفرصة إلى الأبد.

فتفكّرت، وهي تعبث بأناملها بقلق، ثمّ تساءلت:

أأنت مستعدّ؟

- معي من النقود ما يكفي، في البداية.

- إلى أين؟

- أقرب وآمن مكان، الدرب الأحمر.

– لا صديق لنا فيه.

– جميع الدروب معادية، ولكنّ فتوّته «الشبلي» خير من غيره.

– وإذا أبى حمايتنا؟

– لا أظنّ، سأجعل نفسي في خدمته، وإلّا ولّينا وجهة أخرى.

فوجمت كالمتردّدة، فقال:

لا اختيار منّا، وثمّة أعين ترقبنا!

فقلقلت عيناها من الخوف، فقال:

سنمضي من توِّنا، وسوف تكون مفاجأة لم يتوقّعها أحد، هذه هي فرصتنا.

– إني معك، ولكن فلنؤجل التنفيذ حتى أستعدّ.

– إنها فرصتنا الوحيدة.

هكذا، مضيا في الطريق الجديد مضطربَيْن مصمّمَيْن سعيدَيْن، يموتان، ويولدان من جديد.

11

مضى «شطا الحجري»، من فوره، إلى مقابلة المعلّم «الشبلي» في داره

القديمة. صدمه الفارق الشاسع بين دار الديناري الباهرة وهذه الدار الهرمة، بين هيكل معلِّمه المترامي وجسم هذا الرجل النحيل الذي تأهّل للفَتْوَنة بخفّة النمر ودهاء الثعلب. قال «شطا»:

– جئتك مقدّماً الولاء، وطالباً الحماية.

سُرَّ الفتوّة لِلُجوء أحد أتباع الديناري إليه، ولكنه قال:

– حدّثني عمّا ألجأك إليّ.

ولم يجد «شطا» بدّاً من الاعتراف الكامل بحكايته، ليسوّغ ما أقدم عليه من سلوك غريب، وضحك «الشبلي» طويلاً، وقال:

– معلّمك يحيط نفسه بالغموض، في الظاهر، استجلاباً للاهتمام، و– في الحقيقة– ليداري جنونه المؤكَّد.

فأحنى «شطا» رأسه ليخفي ضيقه، ولاذ بالصمت، فقال «الشبلي»:

– لك الحماية والإقامة. ماذا تريد، أيضاً؟

– أن تقبلني في جماعتك.

فقال الفتوّة بصراحة جارحة:

– أمّا هذا فلا، لا أمان لرجل خان معلِّمه!

أصابت الطعنة مقتلاً، فقال بحرارة:

– أردت ألّا أكون وغداً.

– نحن نفضّل الوغد المطيع على الشهم المتمرّد.

– لك ما تشاء، وعليَّ الرضا بالمقدور.

– ألك حرفة؟

– كنت نجّاراً، قبل أن ألتحق بالجماعة.

– مارسْ حرفتك، واحذر أن تلعب بذيلك.

فقال بانكسار:

– إني أنشد السلامة، يا معلّم.

رجع «شطا» إلى وداد وقد خسر أشياء لا تُعَوَّض. ومن نقود «الديناري» المدّخرة لديه، تزوّج، واكترى حجرة وأثاثاً بسيطاً. استقرّ في مسكن وعمل، كما استقرّ الحزن في أعماق نفسه. لقد اعتُبِر في الدرب آيةً على تفوّق فتوّة الدرب، ولكنه عومل كغريب، وأراد أن يهتك ستار الغربة، فقال في المقهى:

– كان أحد أجدادي من الدرب الأحمر.

فسأله شيخ الحارة متحدِّياً:

– أجئت من أجل ذلك؟

فبادره، وقد فطن إلى ما وراء السؤال:

– بل جئت طلباً لحماية فتوّة معروف بشهامته!

وتساءل في نفسه: ترى كم من زمن سيجري قبل أن ينهضم مقامه، ويألف، ويُؤلَف، ثم يتناسى أحزان الماضي كلّه؟

وقال لوداد:

- دفعنا إلى المرّ ما هو أمرّ منه.

فقبّلته قائلة:

- إنّي غير نادمة.

- لقد اعترفت لـ«الشبلي» بحكايتي. والآن، آن لي أن أعترف لك.

وقصّ عليها قصّة علاقته بها، منذ خرج للبحث عنها حتى وقع في حبّها. وصغت وداد واجمة، وصمتت مليّاً، ثمّ قالت:

- قصّة جميلة، ولكنها لا تخلو من رعب.

فقال بحرارة:

- لم يبقَ لنا إلّا أن نسعد.

ولكن، حتى الليلة الأولى لم تخلُ من تنغيص ومن حزن. لقد حظي بالحماية، ولكنه باء بسوء الظنّ والاتِّهام، كما ثبت أنه غير أهل للثقة. وتساءل أناس: هل يرجع «الديناري» إلى المعارك غضباً لكرامته، خارقاً ما التزم به من تعهُّدات سلمية- هو والشبلي- أمام الشرطة؟! هل يثبت «شطا الحجري» أنه شؤم على المكان الذي وفّر له الحماية، كما كان عاراً على المهد الذي وُلِد، ونشأ فيه؟!

وانعكس ذلك كلّه على «شطا»، وتسرّب إلى حنايا وداد، فلم تخلُ الليلة الأولى من شهر العسل، من تنغيص ومن حزن.

12

في صباح اليوم التالي، ترامت إليهما أنباء عمّا لحق بأهلهما من تحرّش وتضييق في الرزق، وتعرُّض لشتّى ألوان الإهانات والقهر. في السوق- أيضاً- سمعت وداد اللعنات تُصَبّ على جمالها الذي يهدِّد الحارة والدرب. رجعت إلى مسكنها شاحبة الوجه منهزمة، وهتفت بعين دامعة:

أبي وأمّي وأخواتي!

فتمتم «شطا» بنبرة حزينة:

أمّي وأخواتي، أيضاً!

تبادلا نظرة طويلة حائرة، أفصحت النظرة عن أشياء انحبست وراء معانيهما. قالت النظرة إنهما اندفعا مع عاطفة طاغية، دون تفكير في العواقب. الحقّ أنهما لم يشعرا بصفاء السعادة إلّا في رحاب الاندفاعية المذهلة. الآن، يعترضهما جدار سميك من الحقائق المرّة، بأنيابهما الحادّة. وكالغريق الذي يتعلّق بقشّة، قال شطا:

وراءنا طريق مسدود، وعلينا أن نستخلص من القمامة جوهرة السعادة المفقودة.

فتأوّهت قائلة:

- اللعنات تطاردني في الطريق.

- علينا أن نجعل من الحاضر ماضياً.

فنكّست وجهها صامتة، فرجع يقول:

فَعلْنا ما هو صواب ومشرِّف...

- ولكننا نسينا العواقب... دعنا نبحث عن رزقنا في مكان آخر.

- لن يخفّف ذلك البلاء عن أهلنا.

- والعمل؟

- لا مفرّ من مواصلة الحياة.

- لكنّها مليئة بالمرارة.

فقال بضيق:

لا مفرّ ولا حيلة.

13

في مساء اليوم الثالث، استبقاه الشيخ ضرغام أمام الزاوية، عقب صلاة العشاء، وقال له:

عندي رسالة إليك من الشيخ عقلة، إمام حارتكم.

أصغى «شطا» بفتور وتشاؤم، فقال الشيخ:

إنه يخبرك بأن ما يعانيه أهلك وأهل زوجك فوق ما يحتمل البشر...

فتقَبَّض وجه «شطا»، وهو يقول:

- الحزن يمزّق قلبي.

- أيكفي ذلك؟ الناس، هنا، يتساءلون كيف تنعمان بالحبّ، على حين يؤدّي أهلكما ضريبة العذاب؟

- أهل الدرب، هنا، يكرهوننا، يا مولاي.

- إنهم معذورون.

فقال «شطا» متنهّداً:

من الأوفق أن نذهب.

- إلى أين؟

- إلى أيّ مكان.

- والمعذّبون وراءكما؟

فقال «شطا» باستياء:

كأنّما تدعونا إلى الموت؟

- إني أخاطب ضميرك.

- ضميري هو ما ساقنا إلى هنا، والمسألة أننا ضحيّة عبث.

– عبث؟!

– أجل.. عبث لا معنى له.

– ولكن... انظر... ما من فعل إلّا وله سببه، وله هدفه، أيضاً.

– لقد خُدعت، فكُلِّفت بمهمّة عابثة.

– ألم تكن تطمح إلى أن تكون فتوّة حارتكم، ذات يوم؟

– أيعني ذلك أن أكون ألعوبة في يد الغير؟

– مَنْ أجبرك؟

– عظيم.. لقد اخترت، بعد ذلك، أن أفعل ما رأيته صواباً.

– وها هو يتكشّف عن أخطاء، فمن ذا الذي يُصلحها؟

– وإذا سرتُ إلى الهلاك بقدميّ، فهل تدافع عنّي أنت؟

فقال الشيخ ببرود:

– الهلاك نهاية كلّ حيّ، ولكن يوجد الخطأ كما يوجد الصواب، أيضاً.

شكره بجفاء، وقام ماضياً نحو مسكنه. شعر بأنه يمضي إليه كارهاً، فتعجّب من ذلك غاية العجب.

وجد في الحجرة غشاوة صفراء، مشبعة بحرارة الصيف، لا تستطاب فيها لقمة، ولا يخفق قلب بالحبّ.

تبادلا النظرات، في صمت مشحون بالكآبة. أعاد على مسمعها حديث الشيخ، وتبادلا النظر أيضاً؛ كأنما تقول له: «أنت السبب». إنهما تعيسان، وما بينهما يتدهور كَلَبِنات البنيان الآيل للسقوط. تنهّد قائلاً:

الحياة لا تطاق.

فآمنت قائلة:

هي كذلك.

– اعتراف ينذر بالمأساة. تساءل كمن يتحسّس ضرساً مريضاً:

– هل نهجر الدرب، ونعيش بلامبالاة؟

– تقول ذلك بلسانك لا بقلبك.

فتساءل متحدِّياً:

ما عسى أن نفعل؟

– أرشدني، فإنك أنت الرجل.

استشفّ في قولها سخرية أثارت غضبه، فقال غاضباً:

– ما من شقاء إلّا وراءه امرأة.

– فليسامحك الله، ولا تنسَ أنّك بدأت بخداعي.

– ستصبّين الأخطاء فوق رأسي!

– كنت القائد، وكنت التابعة.

– هذا هو الظاهر... اللعنة!

فهتفت محتجّة:

– ما دمت قد أحببت، فإنّي أستحقّ أكثر من ذلك.

– ما أعجب ما فرط منه..! ما جدوى الغضب؟. وكبح نفسه قائلاً، وهو يجفّف عرقه:

– نحن نهرب، في الغضب، من مواجهة أنفسنا.

– طيّب أن تذكّر نفسك بذلك.

فقال كالمعتذر:

– وداد، إنّك امرأة ناضجة، رغم صغر سنّك، ولك مزايا عظيمة، الفَتْوَنة لم تخلب لبّك، فأخلصتِ لنداء قلبك، تحدّيت الحارة وهربت معي، ناضجة ومحترمة، عظيم، اقترحي عليّ...

فقالت متأثِّرة بندمه:

– اقترح أنت.

فتفكّر قليلاً، ثمّ قال:

– الشكّ يمزّق قلبي، أأنا ضحيّة عبث، أم العبث مَنْ خَلَق تعاستي؟ في مثل حالي هذه، لا يحسن بي أن أتّخذ قراراً!

– تستطيع أن تتّخذ قراراً، في جميع الأحوال.

فتنهّد قائلاً:

– سأحمِّل الشيخ ضرغام رسالة إلى معلّمي القديم «موجود الديناري»، أسأله عن شروطه لكي يعفو عنّا، فصمتت غير قليل، ثمّ تمتمت:

– افعل، فلا حيلة لنا، لا أتوقَّع خيراً.

15

جاءها بالردّ، في مساء اليوم التالي أو اليوم الرابع، في مقامها الجديد. قال لها بوجه ناطق بحيرته:

كما توقّعت...

– فقالت بأسًى:

لم أتوقّع خيراً.

– إنّه أفظع من ذلك، لقد قال للرسول: «قل للأعمى أن يستمرّ».

فانتقلت الحيرة إلى وجه وداد، وغمغمت:

- أن تستمرّ؟!

- هذا ما ردّده في آخر لقاء لي معه..

- تستمرّ في ماذا؟

- لم يزد عمّا قلت، ولم ينقص.

- أهذا هو شرطه ليعفو عنّا؟

- لم يجرِ للعفو ذِكْر في جوابه.

- لا شكّ أنّك تفهمه خيراً منّي...

- إنّه يتعمد إبقائي في الحيرة، حتّى أجنّ!

- ليته يقنع بذلك، ويعفو عن أهلنا.

فضحك ضحكة جنونيّة، وقال:

لم يكفّ يده عنهم قبل أن أصدع بأمره، وأستمرّ.

- إذن، فعليك أن تستمرّ.

- في ماذا؟

- لِمَ لا تستوضحه؟

– فعل الرسول، ولكنّه لم يردّ. الشيخ ضرغام نفسه قال عنه إنّه يتعذّر التفاهم معه، بيد أنّه نصحني بأن أفعل ما يمليه عليّ ضميري.

– رجعنا إلى ما قبل السؤال.

– توهّمت– مرّة– أنّه يعني أن أستمرّ في المهمّة!

– ولكنّك أخفقت من أوّل خطوة.

– لا أستطيع أن أحكم؛ لأنّي لم أطّلع على كلّ ما يدور في رأسه.

فتساءلت نافدة الصبر:

أهلنا.. هل ينتظرون حتّى نحلّ هذه الألغاز؟

فقال متجاهلاً مقاطعتها العصبيّة:

توهّمت– مرّة أخرى– أنّه يدعوني إلى إصلاح الخطأ.

– هل يقبل الحلّ الذي ترتئيه؟

– لا أدري ألبتّة!

فهتفت:

ثمّة مهمّة عاجلة وهي أن نرفع العذاب عن أهلنا، وأن نبعد عن هذا الجوّ المعادي لنا.

– هذا يعني أن نذهب.

– بل يعني أن نرجع إلى الحارة.

– لا يمكن أن نرجع ونحن زوجان، وإلّا عُدَّ ذلك تحدِّياً له.

– يجب أن نرجع.

قال بأسًى:

– وداد، إنّك تفكّرين في التخلّي عنّي.

فشهقت بالبكاء، ولم تدرِ ما تقول، فقال:

هبنا انفصلنا، فهل يعفو عنّا؟

– ثمّة أمر مؤكّد، وهو أنّه سيكفّ عن أهلنا، وسننجو من هذا الدرب البغيض.

فتمتم كالمتردّد:

من يدري؟

فقالت بوضوح:

إني راجعة...

– يلزمنا مزيد من التفكير.

– نحن نزيدهم عذاباً، ونتعذّب أيضاً، فلنُقدِم، ولنَكِلْ أمرنا إلى الله.

16

عليه أن يستأذن المعلّم «الشبلي»، صاحب الفضل والحماية. إنّه حريص على النزاهة بقدر ما هو متّهم بالخيانة. شعر- مرّة أخرى- بالفارق الكبير بين الدارين: دار الشبلي، ودار الديناري. هنا فناء واسع، ولكنّه موحش ولا زرع فيه، والإصطبل تفوح منه روائح أليمة، وتجري الأبراص بين عمد الأسقف البارزة.

«الشبلي» نفسه لا ينعم جسده بالنظافة، إلّا حين انطلاقه إلى المقهى. أجل إنّه- بخلاف الديناري- واضح، ولكنّه وضوح الابتذال والتفاهة. والحقّ أنّه- رغم كلّ ما كان- لم يحبّ «الشبلي»، ولم يبغض «الديناري». وقد مهّد لمطلبه قائلاً:

- لن أنسى فضلك، ولا ما وجدته في دربك من أمن.

فقال المعلّم ببرود:

لعله يثمر معك.

فقال متصبِّراً على اللطمة:

لن أنسى فضلك، أبداً.

- ماذا تريد؟... أراهن على أنّك لم تحضر للسؤال عن صحّتي!

- صحّتك، دائماً، عين المراد، المسألة أنّنا لم نعد نطيق البقاء، مع ما بلغنا عن انتقام «الديناري» من أهلنا.

فتساءل الرجل في سخرية:

أجئت تطالبني بحماية أهلكم؟!

– ما إلى هذا قصدت، ولكنّنا قرّرنا الرجوع إلى حارتنا، وليفعل الله ما يشاء.

– هل ترجع بخطيبة معلّمك، وهي على ذمَّتك؟

– سيكون الطلاق ضمن ما نقدّم من تضحية... فتهلّل وجه الرجل، وقال:

– هو الصواب، ولا لوم عليك.

– لذلك، جئتك مستأذناً في العودة.

– لك ما تشاء، ولكن يجب أن يتمّ الطلاق هنا!

– لكنّ حدوثه في الحارة خير لنا.

فقال بإصرار:

أرى أن يتمّ هنا.

فتساءل «شطا» في ارتباك:

وما وجه الحكمة في ذلك؟

– لترجع زوجتك– إذا رجعت– بمشيئتها، لا بحكم كونها زوجتك.

– ولكنّها صاحبة الاقتراح.

- ولو، قد تغيِّر رأيها، وتؤثر البقاء وحدها!

قالها بوضح غليظ، فأدرك «شطا»- من فوره- أنّ الرجل يريدها لنفسه، فقال بقلق:

هيهات أن أنال العفو عن الأهل، إذا رجعت وحدي.

فقال بقحة ونبرة منذرة:

لا يهمّني ذلك!

فقال متوسّلاً:

معلّمي...

ولكنّه قاطعة قائلاً بخشونة:

لقد قدّمت لك خدمة لا توزن بثمن، وجاءت نوبتك لتردّ إليَّ بعض الجميل.

تردّد «شطا»، فواصل الرجل غاضباً:

- اذهب، وطلِّق!

17

اهتزّ عودها الرشيق من الغضب، وهتفت:

لن يكون هذا، أبداً.

– فرمقها «شطا» بحزن ويأس، مدركاً عمق المأزق الذي وقع فيه، فهتفت:

فلنهرب!

فقال بذهول:

هيهات أن يتيسّر لنا ذلك.

فحدجته بنظرة غاضبة، وقالت:

لقد أخطأت بذهابك إليه.

– فعلت ما يقتضيه الواجب.

– دائماً، يقودك تصرّفك إلى مشكلات لا حلّ لها.

– إنّي أفعل ما يمليه عليّ ضميري!

فقالت بحنق:

لا شكّ أنّه يطالبك بأن تحمي– أيضاً– زوجتك.

فهتف بغضب:

أجل، ولكن ما حيلتي؟

– هل يمكن أن تتركني له، ثمّ تذهب؟

فتمتم شارداً:

– غير ممكن.

– ماذا تنوي أن تفعل؟

– لا أدري.

– إنه يتوقّع أن تصدع بأمره.

– أجل.

– هل تصدع بأمره؟

– كلّا!

– ماذا تنوي أن تفعل؟

– لا أدري.

– أكاد أن أجنّ.

– ما أنا إلّا رجل مفرد أمام عصابة في درب لا صديق لنا فيه.

– إنّك تفكّر في التسليم.

– إنك لا تفكّرين إلّا بذاتك.

فقالت محذّرة:

– شرّ ما نفعله، في موقفنا الحرج، أن نتشاجر معاً.

– من الخير أن نذكّر أنفسنا بذلك.

عند ذاك، دقّ الباب، فنهض «شطا» إليه يفتحه، فدخل «الشبلي» يتبعه

مأذون الحيّ، ونفر من رجال العصابة.

18

ابتسم «الشبلي» عن ثنيتين ذهبيَّتين، وقال:

– جئنا لتنفيذ ما تمّ الاتّفاق عليه!

تراجعت وداد إلى ركن الحجرة، وهي تحبك جلبابها حول جسدها متسائلة:

– أيّ اتّفاق؟

ردّد الشبلي عينيه بينهما، ثمّ قال بهدوء منذر:

– ها هو المأذون، واختر من الرجال شاهدَيْنِ.

فغلى دم «شطا» في عروقه، وملكته نشوة كالتي دفعته إلى قبول المهمّة في غرزة المنارة، فقال:

– لا اتّفاق بيننا، يا معلّم.

فاربَدّ وجه الشلبي، وتساءل:

– ألّا تريد أن تطلّق؟

فقال «شطا»، وهو يفتح صدره على مصراعيه للمجهول:

- كلّا.

فرنا إليه مليّاً، بين رجال متوثّبين في صمت يشلّ الخواطر، ثمّ التفت نحو المأذون قائلاً:

- اذهب، فلا حاجة بنا إليك.

ولمّا أغلق الباب وراءه، قال:

- لي طريقتي، ولكلّ شيخ طريقة، ولديّ، دائماً ما هو أفتك من القتل!

وتنحّى جانباً و«شطا» يتابعه بعينيه، أمّا الرجال فاتّجهوا نحوه متحفّزين، فصرخ به «شطا»:

- تقدّم أنت، يا جبان.

انقضّوا عليه، فدارت معركة حامية. كالَ لهم ضربات صادقة، وتلقّى ضربات مجنونة. صارع بقوّة وشجاعة، ولكن اختلّ توازنه، فهوى. ارتمى عليه الرجال فأشبعوه ضرباً حتى نزف الدم من بين أسنانه وأنفه، وأوثقوا يديه وقدميه، وجلس أثقلهم فوقه. مضى «الشبلي» نحو وداد، وهو يقول مخاطباً «شطا»:

فلترَ، بعينيك، عاقبة عنادك!

أخيراً، خلت الحجرة لهما. تحطّمت قوائم الكنبة الوحيدة وتفزّر حشوها، وتغطّت الحصيرة بالطين والتراب، وفاحت رائحة العرق. ذهب الرجال مخلّفين روائحهم والجريمة. تكوّمت وداد ممزّقة الملابس، وطُرِح «شطا» على الأرض ملوّثاً بالدم، معذَّباً بالوعي. حجز بينهما صمت وشعور عميق بالحرج. أمّا الحزن والغضب فقد استقرّا في أعماق الروح. تملّص من الصمت، فقال:

لا تحزني، أنت بريئة وطاهرة.

تحجّرت نظرتها أكثر، فقال متأسِّفاً:

بذلت المستحيل!

تحرّكت من مرقدها. سوّت ثوبها، مضت مترنّحة إلى الدهليز، عادت قابضة على سكّين. تمنّى لو تغمدها في قلبه. راحت تقطع وثاقه. تحرّك متأوّها، وراح يجفّف دمه بطرف جلبابه. أخذ راحتها بين يديه مغمغماً:

يا للتعاسة!

فقالت بصوت غريب:

لنذهب.

فقال متوعِّداً!

لأقتلنّه ذات يوم!

– قد تُقتَل قبل ذلك، فلنذهب...

– لا شكّ أنّ الحكاية تُرَدَّد الآن في سوق الدرب.

فقالت بكآبة:

ستسبقنا إلى الحارة، أيضاً.

ثمّ رفعت منكبَيْها استهانةً، وتساءلت:

أين يتمّ الطلاق؟

فصرخ:

لن أطلِّق أبداً...

فاتّسعت عيناها في ذهول، فقال بإصرار:

– أبداً... أبداً...

– وعذاب الآخرين؟!

– إنّي ماضٍ إلى مقابلة «الديناري» ومواجهة المستحيل.

20

غادر «شطا الحجري» ووداد مسكنهما، فيما يشبه الزفّة. أَحْدَقَ بهما الرجال، فتبعوهما حتّى عبرا بوابة المتولّي، مخلِّفين وراءهما الدرب الأحمر وذكرياته الدامية. قال «شطا»:

لم يبق لنا إلّا أن نواجه مصيرنا بشجاعة.

فتمتمت وداد:

من يصدّق أنّنا لم نلبث في الجحيم إلّا خمسة أيّام!

– ساعة واحدة كافية إذا حُمَّ القدر.

ونفخ غاضباً، ثمّ استدرك:

ليت في الوقت متَّسعاً للصبر، حتى يزول الورم عن أنفي وشفتي، لأرجع إلى الحارة على الحال التي تركتها عليها.

– هيهات أن ترجع تلك الحال!

فقال متوعّداً:

– لي رجعة إلى الدرب الأحمر!

– فلنفكّر فيما نحن مقبلون عليه.

– لن أعرف الجبن والتردّد، بعد اليوم.

وقبيل مدخل الحارة بخطوات، وشمس الظهيرة تصبّ على الميدان ناراً، رأي «طباع الديك» يدخن نارجيلة أمام دكّان النجّار. انقبض صدره، وانقبض أكثر عندما نهض الرجل طارحاً خرطوم النارجيلة على المقعد، مقبلاً نحوه في ترحاب ظاهر:

أهلاً.. لم تُخلَق الغربة لنا.

صافحهما، ثمّ وقف يردّد عينيه بينهما، ثمّ قال:

قلبي معكما.. إنّها لمأساة حقّاً!

فتساءل «شطا» نافد الصبر:

أتنوي الشماتة بنا؟

فقال مستفظعاً:

الشماتة! أنسيت أني اعتبر أمّك أمّاً لي؟ أنسيت تزكيتي لك عند المعلّم؟ أنسيت تحذيري لك في الوقت المناسب؟ أنسيت- أيضاً- أنّني أعتبر الاعتداء على عرضك اعتداء على عرضي أنا؟!

آه.. إذن، وصلت الحكاية مع أشعّة الشمس!

وهتفت وداد محتدّة:

إني شريفة، رغم أنف الجاحدين.

فقال «طباع الديك»:

- وجه زوجك يشهد بشجاعته في الدفاع عنك.

فهتف «شطا»:

لن ينجو المجرم من العقاب.

– شهم ابن شهم، ما عليك، الآن، إلّا أن تنال عفو المعلّم.

– هذا ما جئت من أجله.

– الأمور معقّدة. ولكن، متى كانت الدنيا يسيرة؟ وكلّما ازداد الرجل همّه ازدادت الدنيا له تعقيداً، ولكن لن ينسى، أبداً، أنك كنت السابق إلى قبول المهمّة!

فقال «شطا» بعصبيّة:

لن يخدعني كلامك المعسول، لقد علَّمتني المصائب، في أيّام، ما لم أتعلّمه في عشرين عاماً، وهيّأتني لمواجهة المصير أيّا يكون.

– عفارم، لا يعيبك إلّا سوء ظنّك بالناس، وشرّ سوء الظنّ ما حاق بالأصدقاء، وكان يجب أن تعلم أنّ الشماتة ليست من شِيَم الفتوّات!

21

قال «شطا» لوداد، وهما يمضيان نحو الحارة:

– إنّي لا أصدّقه، ولا أثق به.

فقالت وداد بعدم اكتراث:

– ولا أنا.

وهما يدخلان الحارة، همست وداد، بخوف، ولأوّل مرّة:

ما أفظع لقاء الناس.

فقال «شطا» بتحدٍّ:

ليكن ما يكون.

انتبه لهما قليلون، راوحت نظراتهم بين الشماتة والازدراء. همس «شطا»:

فلنسرع نحو دار المعلّم.

ترامت إلى أذنيهما تعليقات:

– الهاربان.

– الخائنان.

– المهتوكان.

أخيراً، طالعتهما البوّابة العملاقة.

22

ها هو «موجود الديناري». ها هو وجهه الذي لا يفصح عن شيء. مَثُلا أمامه في ذلّ واستسلام. ولمّا لم يتكلّم، أو يوحِ برغبة في الكلام، قال

«شطا»:

– ليس في نيّتي الاعتذار، ذنبي أكبر من ذلك، ولكنّي جئت مسلِّماً نفسي لتقضي بما تشاء.

لزم المعلّم الصمت. ترى، أيخفي وراء الصمت غضباً، أم سخرية، أم عبثاً؟ ونفد صبر وداد، فقالت:

– لن نسألك شيئاً لأنفسنا، ولكنّنا نطلب الرحمة لأهلنا الأبرياء.

لم يتغيّر مظهره، ولكنّه تساءل بهدوء:

– ماذا يشكو أهلكما؟

– إنّهم يعانون العقاب الذي استحققناه نحن.

– هل تحرّيتم ذلك عند أهلكما؟

– كانت دارك مقصدنا الأوّل، ولكنّ ذلك ما بلغنا في مهجرنا.

– كذب ما بلغكما!

فذهل «شطا» كما ذهلت وداد. أمّا المعلّم، فقال:

– إني فتوّة الحارة وحاميها، وليس من مذهبي أن أخذ البريء بالمذنب.

– فقال «شطا» بحماس:

– هذا هو المأثور عن شهامتك.

– ولكنكما صدّقتما ما بلغكما ممّا يقع بسوء ظنّكما بي!

فتمتم «شطا» استحياءً:

– الغربة أفسدت عقلنا.

– ما دام هذا التصوّر الخاطئ هو ما دفعكما إلى المجيء، فلكما أن ترجعا، ولن يتعرّض لكما أحد.

فهتف «شطا» الحجري:

– لا حياة لنا إلّا أن تقضي، في أمرنا، بما أنت قاضٍ.

– لا أصدِّقك، فقد عهدتك تقول قولاً، وتفعل نقيضه.

– كان الحرص على الشرف وراء كلّ فعل فعلته.

– إذن، أنت تتّهمني بأنني أكلّفك بما يناقض الشرف!

فقال «شطا» بحماس:

– معاذ الله، يا معلّمي!، ولكنّك تضنّ عليَّ بإدراك مطالبك.

– إمّا أنّني عاجز عن التعبير، وإمّا أنّك عاجز عن الإدراك.

فقال «شطا»، وهو يعاني مرارة القهر:

أعترف بعجزي، ولكن ما حيلتي؟ لقد أرسلت إليك من يسألك عن شروطك للعفو عنّي، فكان الجواب: «قل للأعمى أن يستمرّ».. أستمرّ في ماذا؟

فكّرت في إصلاح الخطأ، فماذا كانت النتيجة؟!

عند ذلك قالت وداد، وكأنما تجيبه عمّا يسأل:

– كانت المأساة الدامية والفضيحة التي سبقتنا إلى الحارة.

– لعلَّكما تتصوّران أنني المتَّهم!

فهتف «شطا»:

– معاذ الله! حسبنا، الآن، أن نتلقّى حكمك.

فأشار المعلّم إلى وداد، وهو يسأل «شطا»:

– ما زالت على ذمّتك؟

– اتّخذنا قراراً بالطلاق والرجوع، ثمّ كان اعتداء الأثيم، فأقلعت عن فكرة الطلاق، إلى الأبد.

– وإذا أُمرت بتطليقها؟

فأحنى «شطا» رأسه صامتاً ويائساً، فقال المعلّم:

في الصمت جواب.

فقال «شطا»:

– إنّي أنحدر من خطأ إلى خطأ، ولن ينتشلني من العذاب إلّا أن تقضي بما ترى.

فقال المعلّم مخاطبّاً وداد:

إنّي أقرأ في عينيك فكرة أخرى، ماهي؟

فقالت وداد، بجرأة غير متوقّعة:

أن تعفو عنه، وأن تعيده إلى جماعتك!

- حقّاً، إنك أنسب شريكة لمن كان مثله.

فقالت ثملة بجرأتها:

حسبنا ماذقنا من عذاب، وحسبه ما أبدى من شجاعة.

فالتفت المعلّم نحو «شطا» متسائلاً:

أهذا رأيك، أيضاً؟

فقال «شطا» بانكسار:

إني منتظر قضاءك!

- يا لك من ماكر!

- مثولي بين يديك يقطع بصدقي.

- بل أنت تريد أن تتوسّل، بالحكم، إلى إدراك ما غمض عليك.

فقال مغلوباً على أمره:

أروم حياة مطمئنّة.

أمسك الرجل عن الكلام، حتّى تشبّع الصمت باللهفة والأشواق، ثمّ قال:

- استمرّ!

فتطلّع إليه «شطا» في حيرة، بل في فزع، فقال الرجل:

- هذا هو الحكم: استمرّ.

فقال «شطا» بحرارة:

- أريد كلمة واضحة محدّدة.

فقال المعلّم:

- لقد أضجرتني، فاذهب.

23

مضى بزوجه إلى بدروم عمارة الجبلي. كانت أمّه، «ستُّهم الغجريّة»، في الخارج، فجلسا وحيدين. اجتاحته الحيرة والتشاؤم، بخلاف وداد التي راحت تقول:

كان بوسعه أن يضربك، أو يطردك من الحارة، أو يصرّ على طلاقنا. الحقّ أنّه عفا عنّا، فتساءل:

– ماذا منعه من النطق بالعفو؟

– لعلّه عزّ عليه أن ينطق به، بعد ما كان منك. ولكن، ألا ترى أنّك حرّ، لم ينلك أذى، وأنّك ستواصل الحياة مثل بقيّة الناس؟

– لم يتركني حرّاً، أمرني أن أستمرّ، ثبّتني في أعماق الحيرة. لم يطردني من العصابة، ولم يُرجعني إليها. لم يعاقبني ولم يعفُ عنّي، لم تندّ عنه كلمة واحدة تدلّ على الرضا ولا على الرفض.

فقالت بحرارة:

– عش حياتك، ولا تشغل بالك بألغاز لا حلّ لها.

– ولكن، كيف؟ ألّا يجوز أن أحاسَب– فجأةً– على أنّني «لم أستمرّ»؟ ما زلت أشعر بأنني مكلّف بأمر ما، غير أنّني أجهله هذه المرّة جهلاً تامّاً...

– يخيّل إليّ أنّ محور همّك يدور حول إيمانك بجدّيّته المطلقة. أليس هو، في النهاية، رجلاً يجدّ حينّاً، ويلهو حينّاً آخر؟ أليس من المحتمل أنّه يميل إلى العبث، وأنّه وجد فيك مادّة صالحة لعبثه؟ أبعِده عن ذهنك، وعش حياتك، ولن تلقى مكروهاً أبداً.

– لو افترضت به العبث لا نقشعت الحيرة من أساسها، ولكنّه رجل أقوى من الطاحونة، وأدقّ من الساعة.

ثمّ رماها بنظرة مقطّبة، وتساءل:

- أيرضيك أن تُرجِعي ما حلّ بنا من شقاء وتضحية إلى اللهو والعبث؟!

***

ولمّا رجعت «ستُّهم»، فرحت بعودته ولكنّها رحّبت- بفتور- بوداد. وقبل مضيّ يوم، راحت تعاتبه على ما جرّ على نفسه من سوء السمعة. والحقّ أنّ أقرانه لم يداروا عنه احتقارهم، وكاد أهل الحارة يقاطعونه مقاطعة كاملة. اضطرّ إلى أن يبحث عن رزقه بعيداً عن الحارة، وتجرّع الغربة وهو بين الأهل والجيران. وتساءلت وداد بمرارة:

متى تُنسى حكايتنا؟

فقال لها:

إنه عقابه الذي لم يعلنه، فصرخت:

بل إنهم أوغاد، ولا رحمة في قلوبهم.

فغمغم «شطا»، وكأنه يهامس نفسه:

استمرّ... استمرّ... ما معنى هذا؟!

مضت الحياة، بمرّها الكثير، وحلوها القليل. ظلّ «شطا» يسعى خارج الحارة، ويعيش فيها بلا صاحب. وقبل أن ينقضي الصيف الثقيل، وقع «الشبلي»، فتوّة الدرب الأحمر في خطأ لا يغتفر: راح يتباهى بأنه اغتصب وداد خطيبة الديناري، على مرأى من «شطا الحجري»؛ «رَجُله الثاني». ترامت الأنباء إلى الحارة مصحوبةً بأغانٍ داعرة، صاغت الحادثة في قالب مزاح ساخر، وإذا بالحارة تشهد تعبئة لم تشهدها من قبل: تسلّح الرجال بالنبابيت والخناجر، وشُحِنت عربات بالزلط والقوارير وخردة الحديد، وانضمّ «شطا الحجري» إلى الرجال، دون أن يُدعى إلى ذلك، وهو يقول لنفسه: «جاء اليوم الذي أحلم به»، وكانت غزوة مفاجئة، وفي رابعة النهار.

نشبت معركة حامية، مازالت ذكرياتها حيّة في رؤوس الكهول ودوائر الأمن. وحقّق «شطا» حلمه فطعن «الشبلي» طعنة قاتلة، متلقّياً- في الوقت ذاته- عشرات الضربات القاتلة، وكان من جرّاء ذلك أن ثار غضب المحافظة، فاتَّخذت قرارها الحاسم.

25

عندما درجت في مدارج الوعي، كانت حكاية «الديناري» قد انطوت في أعطاف التاريخ، ولكنّها كانت ماتزال حيّة في القلوب. لقد قُضي على المعلّم

بالسجن عشرة أعوام، ولمّا أُفرِج عنه، فُرِضت عليه رقابة دائمة، فابتاع مقهى النجف، ومارس حياة مواطن كسائر المواطنين. جلس على كرسي الإدارة مجلّلاً بالشيخوخة والمهابة والذكريات الباقية. وقد قُتِل «شطا الحجري» في مواجهة بطولية، محت العار عن سمعته، وكفّرت عن زلّته، فنشأ ابنه الوحيد رضوان محوَّطاً بالاحترام. وقيل إنّ «الديناري» تكفّل بدفنه، فأُوِّلَ ذلك بأنّه تقدير أخير له، وبولغ في التأويل حتّى قيل إنّه اعتُبر رَجُله الثاني. وقد رأيت، بعينّي، «وداد» وهي امرأة تجاوز الأربعين، وكانت تبيع الخوص والريحان في مواسم زيارة المقابر. وأدركت «موجود الديناري»، وهو يدير النجف، وقد مضى عهد الفتوّات والفتونة. اختفى الرجال، وبطلت الشعائر، فأصبح الرجل، في نظر القانون، صاحب مقهى وتحت المراقبة الدائمة، ولكنّه ظلّ، في نظر العباد، فتوّة الحارة وحاميها.حتّى الشرطيّ وشيخ الحارة لم ينجوا من دفقة الشعور العامّ، فكانا يختصّانه بالاحترام وحسن المعاملة.

أجل، زالت عنه تقاليد الفتونة، ولكن بقي له السحر الخفيّ الذي لا يبالي بالقوانين والأوامر الإدارية، بقي له التاريخ والمهابة والأثر الحيّ.

هكذا، جذبني مقهى النجف، قبل أن أبلغ سنّ الشباب، وكنت أجلس في ركني المنعزل أسترق إليه النظر، بشغف المعجبين وخيال العاشقين.

وكان يتجلّى بهاؤه في الأعياد، فكأنّها لم تخلق إلّا له.

كان يجلس على الأريكة متلفّعاً بعباءة جديدة، ممشّطاً اللحية والشارب، وتمرّ أمامه عربات الكارو محمَّلةً بالنساء والرجال والأطفال، في أثوابهم الجديدة الملوّنة، في هالة رائعة من الطبل والزمر والرقص:

يا فتوّتنا يا دينـــاري

يا حـــبيبنا يا دينـاري

يا حامينـا يا دينـاري

ثمّ تدوّي الهتافات والزغاريد، ويثمل العاشقون بكؤوس المجد، والعشق، والحنين العارم إلى النصر.

خمسُ قصص

(مجلّة الدوحة - أكتوبر 1985)

الهمس

يخطر لي، أحياناً، أن الراحة الحقيقية لا توجد إلّا بزوالهما معاً: هو، وهي. ولكنه مجرَّد خاطر يعبر القلب، إذا اشتدَّ العنت أو ادلهمَّ الخطب، خاطر لا وزنَ له في الواقع، حلم يقظة أخرق. وهل تصبح الحياة حياة إلّا من خلال التعامل معهما معاً؟، وهل يمكن تخيُّل الوجود بدونهما؟ أمّا حيرة المتردِّد بينهما فهي قَدَره الذي لا مفرّ منه. في البدء، تردَّد همسه بالمحاذير والدعوة إلى الاعتدال حيال بسماتها المغرية، فتحدَّت هي محاذيره، وهوَّنت من ترشيداته. ويكفهرّ وجهه، ويفجِّر إنذاراته، فتغضب هي، وتغريني بتجاهله، أو تشكِّك في جدِّيَّته، وأنا لا غنى لي عنها، ولا قدرة لي على تجاهله. في أيّام البراءة لعبنا معاً- أنا وهي - في نور الشمس تحت السمع والبصر، ولكن همسه يقتحمني قائلاً:

حافظ على نظافة ملابسك وسلامتها.

ولكن اللعب يحبّ الحرِّيّة، أليس كذلك؟، فيهمس:

اللعب الرشيد لا يتنافر مع النظام!

وأمتعض وأتضايق. اللعب هو اللعب. لماذا يقيِّد لعبي بنواهيه؟ لماذا يفسد عليَّ مذاق الأيّام الحلوة؟! فلتتَّسخ الملابس؛ فثمّة من يغسلها، ولتتمزَّق؛ فالسوق مليئة بالجديد. وهو كبير ولديه ما يشغله، نهاره وليله، فلِمَ يهدر وقته في تكدير صفوي، رغم حبِّنا المتين المتبادل؟. وترنو هي إليَّ بعينيها الصافيتين، وتتساءل:

أرأيت تعسُّفه؟

ثم تواصل بحدّة:

لِمَ لا يتركنا وشأننا؟، ولِمَ تعمل كلّ هذا الحساب لكلمة تصدر عنه؟

ولكنه قويّ، والمالك الأوحد للبيت وأدوات اللعب وكلّ شيء. وعلَّمتني التجربة أن الاستهانة به غير محمودة العواقب. ها هو يهمس، أيضاً:

البنت ماكرة بقدر ما هي لطيفة، أنا أعرفها كما أعرفك، اسمع كلامي أنا، ولست أمانع في لعبك معها، العَبْ معها ماشئت، ولكن عليك بالاعتدال والنظافة، وتذكّر أنها تلعب مع آخرين أيضاً، فعاملها بالمثل، ولا تجعل منها كلّ شيء؛ لأنك لست لها كلّ شيء، إني أعرف أكثر منك، فاسمع كلامي.

تمنَّيت أن ألعب دون قيد أو شرط، ولكني تعثرت في الخوف، ولم أنس ما سمعت عن غضبه إذا غضب، أو عقوبته إذا عاقب. وتضاعف عنائي عندما حُمِلت إلى المدرسة. والتعليم مشقّة تتحدّى اللهو والمرح وتلتهم الساعات، بلا رحمة، فهل قُضي عليَّ أن أنفق العمر في الصراع مع الجهل؟. أمّا هي فلم تكن تكترث إلّا بالساعة التي هي فيها، ترمق انشغاله بازدراء

واستنكار، وتقول:

اختر لنفسك ما يحلو.

لو خُيِّرت لاخترت ولكن همسه لا ينقطع عني فما حياتي؟ ولأعترف بأنني كنت أنحرف عن الخطّ، أحياناً. أشرد عن الدرس لأفكِّر فيها، أو أخلو إليها في غفلة، ونأخذ في اللعب. ويسألني، دائماً، عن مواظبتي فأتورَّط في الكذب، ويكفهرّ وجهه، ويكتشف كذبي. وقلت لها: إنه لا تخفى عليه خافية، فقالت:

أنت ضعيف، فيتجلّى الكذب في عينيك!

ويقول هو لي مؤنِّباً:

الكذب أرذل من الجهل.

ياله من رجل! أيّ ضرر يصيب العالم، إذا جهلت أن القاهرة هي عاصمة مصر، أو إذا لم أحفظ جدول الضرب؟، ويقرصني في أذني قائلاً:

الرجل الحقيقي يجب أن يعرف السماوات والأرض، ليست الحياة لعباً، انظر إلى النملة!، هل يرضيك أن تكون أدنى مرتبة منها؟!

ويغلبني الارتباك، فأقول له معاتباً:

أنت الذي جئتني بها لألعب معها، فأبعدها عني، فيقول باسماً:

إنك أصغر من أن تشير عليَّ بما يجب، ولن أرتكب خطأً في حقّ الجيرة والقربى، وهي بمنزلة ابنتي، وليس بها من بأس كزميلة لك، فلا منع

ولا إبعاد، ولكن عليك أن تعطي الدرس ما يستحقّه، ولك أن تلاعبها في أوقات الفراغ.

تلك أيّام، مزَّقها العذاب، وإن بدت، اليوم، آية في الجمال بسحر الزمن. وكان أن تغيَّر صوتي، فقالوا: ناهز البلوغ. وهُمِس في أذني، بحزم، أن الآن حُرِّم اللعب. ياللخبر! ما شعرت برغبة في اللعب معها كما أشعر الآن، وهي ترمقني من بعيد، ولكن جرأتها تلاشت. يتكلَّم لسانها بكلام، وعيناها بكلام آخر.

أقول لها خلسة:

– لا يمكن أن نهدم، في لحظة، ما بنيناه في عمر مديد، فتقول في دلال:

– ولكنك لم تعد تقنع بلعب زمان!

– اللعب يتغيَّر بتغيُّر العمر.

– وله حدود لا يتعدّاها.

من ناحية أخرى، راح هو يحذِّرني من الأخطاء، ويخاطب فيَّ الرجل الناشئ. تمنَّيت ولو فراقاً مؤقتاً، ولكنه احتقر رغبتي، وقال لي:

– الحياة اقتحام وحذر، لا مجال فيها للهروب..

الأمور تتعقَّد، وتزداد عسراً، بل أضحت عذاباً ومحنة، ولعلَّه لم يبدُ لي منفِّراً كما يبدو الآن. ارتفع صوته درجات. قلت: إنه هراء في هراء، وإنه يتدخَّل فيما لا يعنيه، كأنه لم يمرّ بالشباب يوماً. وكلَّما ظفرت مع هي

بخلوة امَّحى وجوده تماماً. أنا وهي كلّ شيء، وهو لا شيء. كأنه خرافة! غير أنها اعتصمت بحدٍّ لا تتعدّاه، حتى خُيِّل إليَّ أن همسه قد انسرب إليها. وانفجر غضبي عليه، فسخرت منه في كلّ مكان، واعتبرت نفسي ندّاً له أو أقوى. ولمّا تيقَّنتْ من موقفي الجديد، خافتني وهربت مني. لعلّ ذلك بوحيه وتأثيره!. وهالتني وحدتي، وتخبَّطت في الفراغ، وشُحِنت برغبة دكناء في الانتقام، فاندفعت في اقتراف أخطاء كثيرة بتشفٍّ واستهتار. أتحدّاهما معاً، وأعبث بذكراهما معاً، ولكني لم أنجُ من غشاء الوحشة الذي وقعت في شركه. وتوهَّمت أن الانفصال قد فرَّق بيني وبينه إلى الأبد، ولكن بدا أنه- رغم صمته الظاهر- لم يكفّ عن الاهتمام بأمري. هكذا تبدَّل الحال، فظفرت بوظيفة في المجتمع، وعُقِد قراني بها في ليلة بيضاء. وحقّ عليَّ أن أشكر فضله إلى الأبد، وأن أقرّ بأنه لولا هباته العديدة وإرثه القيِّم ما وسعني أن أسعد بما نلت. واستقللت بمسكن جديد، ومارست السيادة في مملكتي الصغيرة، وانغمست في الحبّ والإنجاب والعمل، وكدت أنساه، تماماً، لا تمرُّداً عليه هذه المرّة، ولكن انشغالاً بالأعباء الجديدة. وبمرور الأيّام تغيَّرت هي أيضاً: صارت زوجة لا حبيبة، وأمّاً وشريكة، لا تمسك عن المحاسبة والمطالبة والشكوى. وأتساءل: أين الدلال والبسمات والكلمات العذبة؟ وهالني العبء المتصاعد فانزلقت قدمني، من جديد، في طريق الخطأ، و-ربَّما- تمادى الخطأ، فساقني إلى ما لا تحمد عقباه. وفجأة، وبعد انقطاع طويل، تلفَنَ لي في مكتبي، وذكَّرني بوصاياه القديمة قائلاً:

- إن فوائدها لم تنعدم بعد.

يا للعجب! كدت أنسى أنه مازال على قيد الحياة. هاهو يعيد الأسطوانة

القديمة، متناسياً أنني لم أعد طفلاً، وأنني، اليوم، مثله- تماماً- في الحريّة واتِّخاذ القرار. ومضيت في سبيلي، ولكن شيئاً من الحذر خالط سلوكي وأهدافي، وأطرح كلّ ثمرات الجهد تحت أقدام الأسرة، فتتلقّفها دون كلمة شكر أو تقدير. وأقول لها:

- الشكر لا يهمّ، ولكني أرجو شيئاً من الرحمة.

فتقول:

- إني أتعب مثلك وأكثر، ولكنك أناني.

وتبدّى لي الزواج صيغة غريبة للتوفيق بين الحبّ والكراهية، بين حبّ الحياة وحبّ الموت، بين التضحية والرغبة في القتل. ولكن السفينة صارعت الأمواج حتى صرعتها، ونجت من الغرق، ونال الآخرون استقلالهم كما نلنا، يوماً، استقلالنا. لم يعد أحد منهم في حاجة إليّ. ورجعت إلى الوحدة جارّةً معها أثقال العمر، ولكنني لم استسلم للأسى؛ وطَّنت نفسي على تقبُّل قوانين الأشياء، وناجيت في وحدتي الرضى والسلام. ولم أقلِّل من قيمة المسرّات الزائلة، ولا من سحر التحف والأغاني، ولا حتى من جمال الأطعمة الشعبية. وإذا بي أتذكّره فجأة، بعد طول نسيان! وكيف لاأتذكَّره مادام على قيد الحياة؟ وهو من جيل معمَّر يُغبَط على طول عمره وسلامة صحّته. ولو كان أصابه تلف لترامت إلينا أخباره، في حينها، فلا شكّ أنه يمارس حياة طبيعية، وسيسعد برجوعي إليه مثل سعادتي و-ربَّما- أكثر. وهيهات أن أنسى نواياه الطيِّبة ورحمته. أمّا عن رأيه فيَّ فلا أحسبه في صالحي، ولكنه كان، دائماً، أكبر من تقصيري، وأعلى. اليوم، يبدو لي على حقيقته أكثر من أيّ عهد مضى، ثم إنه أقام في القرية منذ عهد بعيد،

وشدَّ ما تهفو نفسي إلى الخضرة والهواء النقي! إنها أثمن، في النهاية، من أثاث بيتي، وتُحَفه، وما جمعت من مال وبنين. سأمضي إليه، وليس في نيَّتي أن أعتذر، أو أن أصوغ من سحر البيان جملة واحدة: سأمثل بين يديه باسماً، وأقول هامساً: ها أنا قد رجعت، مدفوعاً بالشوق وحده، فاقضِ بما أنت قاض.

في غمضة عين

ما ظنَّ، يوماً، أن زوال محنته يعني انزلاقه إلى محنة جديدة. من أجل ذلك، لم يستمتع طويلاً بعطر الخريف وأماراته المشرَّبة بالبياض الناعس التي تغازله في مجلسه، بشرفة كافيتريا الجلوب.

إلى جانبه، وفي متناول من منكبه، جلست رافعة بروفيل وجهها الأسمر الصافي، الذي تفانى في حبّه على مدى سنوات طويلة. هيَّأ نفسه، منذ اللحظات الأولى، للقاء- كالعادة- للتشاكي، ولِنَفْث نسمات الحبّ في مناخ الإحباط المحدق، وللحومان حول هموم للسكن، والخلوّ، والجهاز، والمهر، ثم كيفية مواجهة تحدِّيات المعيشة.

استقلّا معاً قارب الحبّ، منذ المرحلة الثانوية، وتلاعبت به أمواج الحياة المعاندة غير المواتية، ولكنهما ظلا مصمِّمَيْن على البقاء، جنباً لجنب، قابضَيْن، بشدّة، كلٌّ على مجدافه، رافضَيْن الانهزام أمام العقدة التي

تطوِّقهما. هذا الصباح، تطالعه عيناها بمرآة جليّة الصفاء لا ينضح بياضها النقيّ بفتور. لم يخلُ، قطّ، جمال نظرتها من كآبة خفيّة تتجلّى حيناً، وحيناً تُستَشفّ. وتاق قلبه لسماع أيّ خبر حسن، واحتسيا قدحَي الجوافة، على مهل، في صمت، حتى خَرَقه قائلاً:

- الحلم يتضخَّم في رأسي، وغير بعيد أن يصبح واقعاً!، فقالت بثقة جديدة كلّ الجدّة:

- غير بعيد، على الإطلاق.

حقاً؟! اقترح ذات يوم أن يتزوَّجا بالفعل، وليكن ما يكون. أجل، سيظلّ في بيت والده بالقبيسي، كما ستظلّ في بيت أبيها بالوايلي، ثم يبحثان عن حَلّ، وهما حاملان، معاً، لأمانة الزوجية. أبوه- رغم كونه موظَّفاً صغيراً، ممَّن عَجَنهم الانفتاح- إلّا أنه لم يرتَحْ- أبداً- لاختياره ابنة حلّاق. لتكن جامعية وموظَّفة، فأي قيمة لذلك اليوم؟، ولكن الفتى نشأ رجلاً لايتحوَّل عن المطالبة بحقوقه الكاملة. تفرَّس في وجهها، مأخوذاً بتعليقها القويّ، وقال:

- ماذا وراءك؟.. لديك شيء جديد؟

فقالت بثقة باسمة:

- أجل.

- حقّاً؟

- تبخَّرت المشكلة، انحلَّت العقدة، هبط حَلّ بارع، من السماء!

- ماذا عندك؟

فقالت بانفعال، لم تستطع كبحه:

اسمع، رجل أعمال عَرَض على أبي التنازل له عن دكّانه، نظير مبلغ خمسين ألفاً من الجنيهات.

انعقد لسانه من طغيان الفرح. الخبر، في ذاته، خبر من الأخبار المتداولة في تلك الأيام، ولكنه لم يتصوَّر أن يطرق بابه كواقع حيّ.

- أرأيت- يا عزيزي- كيف تُحَلّ العُقَد بالسحر؟!

- حكاية لا تُصدَّق!

- هي الحقيقة، وبعض زبائن أبي قدَّموا نصائح ثمينة.

- مثال ذلك؟

- أن يهجر حرفته، ويعمل بالاستيراد، ودلّوه على الطريق لفتح مكتب.

- استثمار، وثراء مضاعف!

فنقرَتْ على ظهر يده بأظافرها الأرجوانية، وقالت:

- أبي يجهل اللغات الأجنبية، سيسافر كثيراً. أقترح أن نستقيل من بطالتنا المقَنَّعة، وأن نعمل في مكتبه بمرتَّب حسن، ونسبة في الأرباح.

ضحك. لبثت أساريره ضاحكة، ونسي هموم العمر كلِّه، وقال:

- دَخْل خياليّ!

- وتلاشت المشكلات دفعة واحدة.

ونظرت إليه باسمة، وكأنما تدعوه لإعلان موافقته وشكره، فقال:

- توفيق ما بعده توفيق.

وتاه في الحلم، تحت مراقبة عينيها، مورَّد الخدين من الفرح، وغائصاً في لجّة من الخواطر، ومسح بيده على شعر رأسه الغزير، وتنفَّس بعمق، ثم قال، وكأنما يحاور نفسه:

سنصبح منهم!

- من تعني؟

- أنت تعرفين ما أعني، تماماً.

الماضي لا يمكن أن يُنسى، إنه ماض حاضر، تجسَّد في حوار متواصل. انهال بألسنته المحمومة على الانحرافات والطفيليّين، من منطلق مثالية ناصعة، بل انتماء لا يخلو من تطرُّف، لكنها قالت:

الصفقة مشروعة، ولا غبار عليها.

- أُسلِّم بهذا، ولكنا لم نعفِها من نقدنا المرّ.

فقالت محتجة:

لابدّ أن نفرِّق بين ما هو شرعي وما هو منحرف.

- معك الحقّ، ولكن أصحابنا سيسخرون منا.

- فليسخروا ما شاءوا، المهمّ أن عملنا لا غبار عليه.

- العمل لا غبار عليه.

- من منهم يُعرض عن فرصة مماثلة، إذا سنحت له؟

- لا أحد فيما أتصوَّر.

- ولا يوجد سبب واحد يدعو للتردُّد.

- هذا حقّ، المسألة...

وتوقَّف متفكِّراً، فتساءلت بحدّة:

- المسألة؟!

- ماذا أقول؟ كنا نتكلَّم، بين الأصحاب، بحماس جاوز الحدّ.

- حول المنحرفين، دائماً المنحرفين..

- ألم نعتبر بعض أنواع الاستيراد انحرافاً؟

فقالت متجهِّمة:

- سنكون موظَّفين لا أكثر!

- صاحب المكتب هو أبوك وحموي!

- لن يكون مهرِّباً أو خطّافاً..

- طبعاً.. طبعاً، ولن يمنعنا العمل الجديد من المحافظة على أفكارنا.

- طبعاً.. طبعاً.. هل تتصوَّر أن تضحيتنا بالفرصة هو الذي سيصلح المجتمع؟

- طبعاً، لا.

- لا تبال- إذن- بأيّ قول متعسِّف.

- هذا هو الرأي الصواب.

- هل أعتبر الأمر منتهياً؟!

- أي نعم!

هكذا، تلاشت المشاكل، وابتسمت الحياة. آمن بذلك تماماً، ولكنه شعر-

الوقت نفسه- بأن محنة جديدة تتربَّص به، بين الأصحاب أو في أعماق ذاته. ومن الآن، فصاعداً، ستكون السعادة هي المشكلة. ستكون المشكلة هي الدفاع عنها والمحافظة عليها للنهاية، إن أمكن!..

يرغب في النوم

غادر التاكس عند مدخل شارع حسن عيد. الضحى ارتفع، والشمس تريق أشعّة حامية من سماء باهتة، ودفقات متتابعة من الخماسين تزيد من الحرارة، وتثير الغبار، وتنفث الضيق والكدر، تغيَّر كلّ شيء، بقوّة تفوق الخيال. الطريق، من محطّة مصر حتى هنا، يكشف عن قاهرة أخرى. أين ذهبت القاهرة التي عاش فيها منذ نيف وخمسين عاماً؟ جُنَّت بالرخام والسيارات والصراخ والدمامة. ليس وجهه وحده الذي عبث به الزمن، وهو متوسِّط القامة نحيلها، معروق الوجه، أصلع، شائب العذار والشارب، مطوَّق العينين والفم بالغضون، يتوكَّأ على عصا، ويتمتَّع بنشاط يُحسَد عليه، بالقياس إلى سنِّه. ها هو قد رجع بعد عمر طويل، فما الأمل؟. لم يرجعه عقل أو منطق، ولكن، نداء خفيّ ملِحّ متعب مبدِّد للراحة قال له: اذهب، وانظر، وافعل شيئاً ما، لعلّه يجعل نومك أعمق. وشارع حسن عيد يتراءى في تكوين جديد، حتى اسمه امَّحى من الوجود، وحَلَّ محلَّه اسم جديد، هو (الشهيد مصطفى إبراهيم). وعلى الجانبين،

قامت العمائر العالية، وتراصّت في أسفلها الدكاكاين، وماج الطريق بالزبائن. إنه سوق، ولا أثر للبيوت القديمة والهدوء الشامل والذكريات المتلاشية كحلم. نداء عقيم، ساقه بلا وعي ، وسيتمخَّض عن لا شيء. واتَّجَه نحو العمارة الأخيرة في الجانب الأيمن. هنا، قام، يوماً، البيت القديم. كأن الشارع لم يكنس منذ جيل، والخماسين تشتدّ وتحمى منذرةً بالمزيد من الإرهاق. وحَنَّ إلى مهجره في الريف، البيت الذي اضطرّ إلى الابتعاد عنه بعد إقامة نصف قرن. بوّاب العمارة مشغول ببيع الفاكهة في مدخل العمارة، معروضة على رفّ طويل تحت صناديق البريد، ما بين برتقال وموز وليمون. وقعت عيناه على عينيه، فانتبه الرجل متوقَّعاً زبوناً جديداً، فحيّاه بسرعة، وقال:

– هل تعرف عمّ محمَّد الشماع، أو أيّ أحد من أسرته؟

فتر إقبال الرجل، وقال:

– لا أعرف أحداً بهذا الاسم.

– كان يقيم في البيت القديم، الذي شُيِّدت هذه العمارة محلَّه؟

– هذه العمارة قائمة منذ أربعين عاماً!

– لعلَّ أحداً بهذا الاسم، في عمارة أخرى؟

– لا أظنّ، وعليك أن تتأكَّد، بنفسك، بسؤال البوّابين.

دورة من العناءوالضجر واليأس، ولا أحد يعرف الشمّاع أو أسرته. كانوا أسرة كاملة مكوَّنة من أب وأمّ وأخ وأخت. من رحل، يا ترى، ومن بقي؟

نصف قرن- بل أكثر- ليس بالزمن القليل، عمر طويل دالت فيه دول، وقامت دول، وهل تُنسى أيّام التعاسة الأولى، أيّام القحط والأزمة؟ وإن يكن جيل مضى، ألم يخلِّف جيلاً جديداً؟ ألّا توجد همزة وصل تصل ما بينه وبين ذلك الزمن الغابر؟ هل يرجع كما جاء، ليجد الذكريات فوق فراشه ترصده بنظراتها الباردة القاسية؟ ورجع إلى الشارع العمومي، فشعر بالعرق ينساب على جسده خطوطاً لاذعة تحت جلبابه المخطَّط. واشتدّت الخماسين، واكفهرّت، وأثارت مزيداً من التراب، فحجب الأفق الرؤية. لا مفرّ من الانتظار حتى المساء ليعود مع قطار الصعيد. وقت طويل، والتسكُّع لا يحلو في مثل هذا اليوم. ترى، أين أصحاب الشباب؟ ومن بقي منهم على قيد الحياة؟ لعلّ عند أحدهم نبأ عمّا يبحث عنه! ولكن، أين هم؟ وهل مازالوا يتذكَّرونه؟ لا.. لا.. بحث عقيم عن أناس اقتُلعوا، تماماً، من وجدانه، وكأنهم ماتوا وشبعوا موتاً. حتى أغاني ذلك الزمان لم تعد تطرب أحداً، وتثير السخرية. وخطر له خاطر، لا يدري من أين جاء: أن يزور المدفن القديم، ومن توه، مضى إلى باب النصر.

وجد القرافة عامرة بالسكّان، كما قرأ في الصحف. أصبحت في موسم دائم، ولكن حوشهم نجا لصغره، إذ كان يحوي قبراً واحداً وخالياً من المرافق والمياه، ولا يكاد يتَّسع لواقفَيْن أو ثلاثة.

وسأل عن التُّربي الذي نسى اسمه تماماً، فجاء عجوز يسعى، في سنّ أبيه لو كان على قيد الحياة، ولعلَّه ظنّ أنه استُدعِيَ لرزق جديد. اطمأنّ إلى شيخوخة الرجل، وحدس أن سيعرف، من خلالها، أشياء. وبعد تحية سأله:

– حوش الشمّاع؟

– نعم.

– إني اسأل عنه، أو عن أيّ فرد من أسرته.

انطفأ وميض الأمل في عينَي الرجل، وسأله:

– من حضرتك؟

– صديق قديم، ويهمّني جدّاً أن أهتدي إلى أيّ فرد من الأسرة.

– كنت على معرفة وطيدة بعمّ محمّد الشمّاع (الله يرحمه).

– مات!

– ورقد، في هذا القبر، منذ أكثر من خمسين عاماً!

– والستّ الكبيرة؟

– لحقت به بعد عام أو عامين.

– وماذا عن الآخرين؟

– لم يفتح القبر منذ وفاة الستّ، ولا علم لي عن الآخرين.

– كان للمرحوم ابن وبنت؟.

– كان له ابنان وبنت.

خفق قلبه، وهو يتساءل:

- ابنان؟!

- الابن الأصغر، ربّنا يرحمه حيث يكون.

- لماذا؟

- ولد فاسد شرّير، كان يعمل في الدكّان مع أبيه وأخيه، وفي عزّ الأزمة سرق الخزانة وهرب، ولم يسمع عنه خبر، بعد ذلك.

- أعوذ بالله! لا شكّ أنه تركهم لأيّام عسيرة..

- محنة وفقر وتسوُّل، سرعان ما مات الرجل كمداً، ولحقت به امرأته. أنجب شيطاناً، ولا أشكّ في أن الله قد انتقم منه شرّ انتقام.

نظر إلى القبر مليّاً، ثم رفع بصره إلى السماء المغبرّة، وهمس:

شكراً.

فقال الرجل:

ربنا يدلّك على ابن الحلال ليرشدك إلى ما تريد.

وحيّاه، وانصرف. سار كالأعمى لا يرى ما بين يديه.

تحت الشجرة

كأنما غادرها أمس، بمدخلها الضيق المتوَّج باسمها الرنّان «فينكس، كافتيريا، بار»، وحجرتها المربَّعة الواسعة، بموائدها الرخامية وكراسيها الخرزانية ومقصفها المتصدِّر. و-كالعادة- مصابيحها مضاءة منذ الصباح لانزوائها في عمق، بعيداً عن الشمس. وجوه غريبة لزبائن جدد، فيهم نفر من الأجانب. اختار كرسيّاً وجلس، بجسمه الطويل النحيل المتهافت، وبنطلونه الرمادي، وقميصه الأبيض نصف كم، ورأسه الكبير الموخوط بالشيب، ووجهه الغامق الموسوم بالعناء. نظر فيما حوله، وقلقت في عينيه الواسعتين نظرة حائرة. أقبل النادل، ولمّا رآه من قريب اتَّسعت عيناه دهشةً وسروراً، وهتف:

- مبارك يا أستاذ.. حمدالله على سلامتك..

وتصافحا. وطلب فنجان قهوة زيادة، ولكن الرجل سأله قبل أن يذهب:

- كيف الصحّة؟

- كما ترى.

– ستعود كما كنت، وأحسن.

حقّاً! سبع سنوات عجاف، ولكنه قال:

ربنا يسمع منك.

وذهب الرجل ورجع بالقهوة، ثم صبَّها في الفنجان قائلاً:

هذا الفنجان على حسابي!

– تشكر.

– أسفنا جدّاً، ما باليد حيلة.. على أيّ حال، فأنت بطل!

رشف رشفة، وسأله:

لماذا؟

– السجن في سبيل المبدأ.

– عظيم، هل أنت مستعدّ لذلك؟

فضحك النادل الكهل قائلاً:

لست بطلاً مثلك.

وذهب يلبّي طلباً. أتى على الشراب، فلم يبق إلّا الرواسب في القعر، والتصاوير في الجدران. وتذكَّر قولة قارئة الفنجان، في الزمان الأول: «قدّامك سكّة سفر وسعادة». يستوي قول الأوّل والآخر في الكذب. خمس

سنوات ضاعت. وأبوه قال له «حذار من الجنون، يا مجنون، البلد مختنقة مهرولة، لا هَمَّ للفقير إلّا اللقمة، ولا للقوي إلّا الثروة. الواضح أن الايقاع يتضاعف، والجنون يتفشّى.

وتفرَّسَ في الوجوه من حوله، بدهشة وإنكار، ولـمّا رجع النادل الكهل إليه، قال له:

لا أرى أحداً من زبائن زمان!

– لعلَّهم في البيوت. هؤلاء سماسرة ورجال أعمال وسيّاح، الانفتاح، يا أستاذ.

– والأصدقاء ألّا يجيئون، كالعادة؟

– أبداً.. منذ سنوات طويلة.. فعبس متسائلاً:

كلّهم؟

– ولا واحد يوحِّد الله.

– عندك فكرة عنهم؟

– طبعاً، القاسم والأرملاوي ورضوان مدرِّسون في إحدى البلاد العربيّة.

– مرّة واحدة؟

– خير وبركة.

– والقائمة السوداء؟

– لا سوداء ولا بيضاء.

ضحك على رغمه، فقال النادل:

– سيملكون الشقق والسيارات ، لِمَ لا؟

– والسيوفي؟

– السيوفي، وبدران، ورزق الله، في فرنسا، صحافة عربيّة، ثراء أيضاً، وقيل إن رزق الله اعتنق الإسلام!

ضحك مرّة ثانية، وتساءل:

وأكرم؟

– تاب، ويعمل في الصحافة القومية.

– وجلال؟

– يعمل في الأهالي.

–فضحك للمرّة الثالثة، وقال:

– لعلّه جُنّ؟

– كلّا، الذي جُنّ هو الأستاذ البرديسي!

– تعني أنه في المستشفى؟

– كلا، يُرى، أحياناً، في الشوارع يحاور الهواء.

– فادك الله.

– حتى زملائي في القهوة هاجروا إلى العراق، ولولا سنّي للحقت بهم.

– ربّنا يعوّض عليك.

فحدجه بنظرة باسمة، ثم سأله:

وأنت، متى تهاجر؟

فلم يجب، وارتسمت على زاوية فمه ابتسامة ساخرة، فقال النادل بنبرة ودودة:

زمن المبادئ مضى، وهذا زمن الهجر.

– كلامك كلّه حكمة.

وتجهَّم وجهه، فبدا أكبر من سنِّه بعشر سنوات. أيّ ماضٍ، وأي حاضر، وأي مستقبل؟! أين، ومتى يقابل جلال؟ وكيف يصارع العبث؟، وقال للنادل:

– فنجان قهوة آخر، بن زيادة وسكر زيادة.

مولانا

ابن الأرض، من أسرة الأعشاب البِّريّة، نشأ، ونما، وترعرع في البستان الذي توسَّط، يوماً، ميدان العتبة الخضراء القديم. من المجهول انبثق، لتربّيه الأيدي القذرة: تطعمه لقمة، وتلبسه جلباباً، وتسلبه إنسانيَّته. وذات يوم- وكان عوده قد اشتدّ، وطال- أشار إليه عابر سبيل، وقال لصاحبه بصوت مرتفع ضاحك:

- انظر، كأنما هو الملك!

الملك! يعرف أنه يوجد ملك، ورأى من بعيد موكبه. ماذا يعني الرجل؟ وتكرَّرت الإشارة والنظرة المندهشة. أيشبه الملك حقّاً؟ أيمكن أن يحدث ذلك في هذا الوجود؟! وسعى إلى مرآة مصقولة معروضة عند مدخل محلّ لبيع الأثاث، في أوَّل شارع الأزهر، ليرى صورته، ليرى الملك. إذن، فهذا هو الملك. لم تطمس شكله رثاثة الجلباب، ولا قذارة الوجه، وراح يغسل وجهه، ويمشِّط شعره، ويقطع الميدان بالطول والعرض، فيحرز النجاح بعد النجاح، ويتلقّى الإشارات والتعليقات، ويمضي باسماً مزهوّاً بصورته النفيسة. وعُرِف في المنطقة، مع الأيام، بـ(مولانا)، مولانا صاحب الجلالة. وفسَّرت الظنون الساخرة الشبه العجيب بما عرف عن الملك الراحل الأب من رمرمة جنسية، فمن يدري؟ فلعلّه... وأَلَيس من الجائز أن...؟ وما وجه الاستحالة في أن يكون؟... هكذا، ألحقته السخريات بالدم الأزرق المصون لأسرة محمد علي. وهو لا يعرف لنفسه أمّاً ولا أباً، فكلّ شيء محتمل. وُجِد على الأرض، عارياً أو في لفّة، ونشأ في أحضان

الطبيعة مثل أجداده الأُوَل، في العصور الغابرة، وحام مع الظنون حول أصله الرائع المجهول، وانتظر، من وراء ذلك الشبه، خيراً.. وأيّ خير! والواقع أن فخامة منظره خفَّفت عنه من بلاء التشرُّد، وجنَّبَته كثيراً هراوات الشرطة، فكان أكرمَ المتشرِّدين، وآمنَ النشّالين، وقال له أقرانه:

- إذا رفعك الحظّ، يوماً، فلا تنسَنا!

فوعدهم بالخير والحماية، وتعلَّقَ أكثر بأحلامه الخرافية.

وطرقت شهرته، أخيراً، قسم الشرطة، وذهب المخبرون، ورجعوا قائلين:

الطول والشكل واللون، إنه معجزة.

وقرَّر المأمور أن يراه بنفسه، ولمّا مَثُل بين يديه تفحَّصه بذهول، ولمّا صرفه وجد نفسه يفكِّر فيه كمشكلة حقيقية، أيمكن أن يتغاضى عنه كدعابة لا وزن لها؟ هل يأمر بمراقبته حتى يقبض عليه متلبِّساً؟ لم يقنع بهذا الحلّ أو ذاك، ورأى أن يبلغ الخبر إلى أحد الرؤساء في الداخلية، الذي تربطه به علاقة حميمية.

وجرت التحرِّيات من جديد، وارتبكت مراكز الأمن العليا، واعتبرت الموضوع بالغ الأهمّيّة والخطورة.

- قد يتكشَّف الأمر عن مضاعفات مجهولة، ونسأل، عند ذاك: أين كنتم، أيّها السادة؟!

- والعمل؟

واستقرَّ الرأي على اعتقاله، ووضعه في الطور، باعتباره من الخطيرين على الأمن، الواجب استبعادهم. وتَمَّ التخلُّص من فاروق «الثاني»، واطمأنَّت القلوب، وكاد يُنسى، تماماً.

وقامت ثورة يولية، وانهالت المطارق على العهد البائد. وكتب أحد الصحافيين عن واقعة شبيه الملك المخلوع، المنسي في المعتقل، فكانت كلمته إيذاناً بالإفراج عنه.

رجع إلى تشرُّده، ولكن بلا حلم هذه المرّة، ولكنه حَمَدالله على نعمة الحرّيّة. ونشرت بعض المجلّات صورته، فاكتسب شهرة لم تخطر له في بال. وقرَّرت إحدى الشركات السينمائية أن تنتج فيلماً يصوّر الفساد في عصر ما قبل الثورة، وكان الملك يظهر فيه في منظر هامشيّ، فيما وراء الأحداث، واستدعت الشابّ لتجربة في الدور، فأدّاه أداءً مقبولاً؛ لسهولته، وحاز سمعة لا بأس بها، ولكنها لم تفتح له طريق النجاح، ولم تكتشف فيه موهبة ذات شأن. ورأى المسؤولون أن الحديث يتكرَّر عن الشابّ، وأن صوره تنشر أكثر ممّا ينبغي، وإذا بمشكلة جديدة تنشأ من حيث لايحتسب إنسان، وقال شخص بعيد النظر:

– شعبنا طيِّب، ولا يبعد أن يوجد فيه من يعطف على الملك، رغم فساده، وسيكون وجود هذا الشاب محرِّكاً لهذا العطف.

– إذن، يُمنَع نشر صوره.

– بل الأوفق أن يختفي، تماماً!

وظن الشاب أنه وُلِد من جديد، ليستقبل عهداً جديداً، وأشعل الدور الصغير الذي قام به في الفيلم طموحه إلى أقصى حَدّ، وتوقَّع الخير مع طلعة كلّ شمس، وكلما شعر بمرارة الانتظار، قال:

إذن، الله لم يخلقني في هذه الصورة إلّا لحكمة بالغة.

ولكنه اختفى بلا سبب ظاهر. لم يعد أحد يراه في أيٍّ من مظانّه.. اختفى تماماً، بل يبدو أنه اختفى، إلى الأبد.

خطة بعيدة المدى

(مجلّة الدوحة - يناير 1986)

خطّة بعيدة المدى

بالأمس، تحدِّيات الجوع والصعلكة. واليوم، تحدِّيات الثراء الفاحش. بيت عتيق بنصف مليون! خُلِق عصام البقلي من جديد، خُلِق من جديد، وهو في السبعين من عمره. تملَّى صورته في المرآة القديمة: صورة بالية، تكالب عليها الزمن والجوع والحسرات. الوجه قالب من العظام البارزة والجلد المدبوغ الكريه، جبهة ضيِّقة غائرة، وعينان ذابلتان، ورموش قليلة باقية. أسنان سود بلا ضروس، ولغد من التجاعيد. ماذا يبقى، من الحياة، بعد السبعين؟ ولكن، بالرغم من كلّ شيء، فللثروة الهابطة سكرة لا تتبخَّر. أمور لا حصر لها يجب أن تُنجَز. المليونير عصام البقلي بعد الصعلوك المتسوِّل عصام البقلي. كلّ من بقي على قيد الحياة، من الأصدقاء القدامى، هتف: «أما سمعتم بما حصل للبقلي؟»، «ماذا حصل للصعلوك؟»، «البيت القديم اشترته شركة من شركات الانفتاح بنصف مليون!»، «نصف مليون!!»، «وكتاب الله». وينتشر الذهول ما بين السكاكيني والقبيسي والعباسية كإعصار. البيت كان يمتدّ، بفنائه الواسع بشارع قشتمر، ورثه

عن أمّه، رحلت منذ عشر سنوات بعد أن حوَّلها العمر إلى حطام، تعلَّقت بالحياة بإصرار، حتى تهتَّكت الخيوط، فهوت. لم يحزن عليها، عَوَّدَته الحياة على ألّا يحزن على شيء. لم يكن إلّا معاش أمّه الصغير والمأوى، لم يحرز أيّ نجاح في المدرسة، لم يتعلَّم حرفة، لم يؤدِّ عملاً، أبداً. صعلوك ضائع، قد يربح قروشاً في النرد، مع الغشّ، بفضل تسامح الأصدقاء، أصدقاء كثيرون جادت بهم المدرسة والجوار على أيّام الطفولة والصبا والشباب، في روحه خفّة كفَّرت عن سيِّئات كثيرة، وغفرت أخطاء، دائماً يحظى بالعطف؛ لشدّة بؤسه وانغلاق مستقبله. الأب كان موظَّفاً بالبريد، وأمّه ورثت بيت قشتمر، بطابقه الواحد الصغير، وفنائه الواسع المهمل، فحقّ له أن يقول إنه ابن ناس طيِّبين، ولكنه سيِّئ الحظّ. الحقيقة أنه كان بليداً تنبلاً وقليل الأدب، فسرعان ما طُرِد من المدرسة. عاش حياته، تقريباً، في مقهى إيزيس، مديناً أو مسدِّداً دينه بالغشّ وكرم الأصدقاء.

فكَّر صديقه المحامي عثمان القلة أن يلحقه بمكتبه الكائن بميدان الجيش فأبى، لأنه كان يكره العمل كره العمى. وفي وحدته، عندما يغيب الأصدقاء في أعمالهم، يُمضي وقته في الكسل وأحلام اليقظة. يبتلّ ريقه بشيء من اليسر، في مواسم الانتخابات والأفراح والمآتم. عاش دهره بفضل خفّة روحه وكرم أصدقائه، واحترف التهريج: يغنّي، ويرقص، وينكِّت ليفوز بأكلة فول أو قطعة بسبوسة أو (نَفَسين حشيش)، وظلَّت غرائزه مكبوتة جائعة مجنونة. بيت قشتمر لا يعرف من ألوان الطعام إلّا الفول والطعمية والباذنجان والعدس والبصارة والنابت، أمّا أحلامه فتهيم، دائماً، في وديان من الولائم الغامضة والجنس المكبوت. وكانت له أساطير

عن غراميات مع أرامل ومطلَّقات ومتزوِّجات أيضاً، فلم يصدِّقه أحد، ولم يكذِّبه أحد. طُبِع بصورة المتسوِّل منذ شبابه الأوَّل؛ ببدلته المشتراة من سوق الكانتو، وصلعته المبكِّرة، وشحوبه الدائم. لم يصدِّق أساطيره أحد، سوى مغامرة مع خادمة أرملة تكبره بعشر سنوات، سرعان ما انقلبت إلى شقاق ونزاع عندما تبيَّن له أنها تروم الزواج منه، بل اشترطت- أيضاً- أن يجد لنفسه عملاً، لأن اليد البطّالة نجسة. ووقع الانفصال من خلال معركة، تبودلت فيها الضربات على الوجه والقفا. تلك كانت المغامرة الوحيدة الحقيقية، والتي شهدها جاره الأستاذ عثمان القلة، فحدَّث في المقهى قائلاً:

فاتكم مشهد ولا السيرك: امرأة مثل زكيبة الفحم، فرشت الملاية لعزيزنا البقلي في فناء بيته الكريم، على مسمع ومرأى من أمّه الكريمة المذهولة، ولم تفضّ المعركة إلّا بطلوع الروح، وتدخُّل أولاد الحلال، وسرعان ما نشبت معركة جديدة مع أمّه.

عدا تلك التجربة الفاشلة، جحظت عيناه من طول التطلُّع النهم إلى السائرات في الطريق، واحترق قلبه كما احترقت معدته من الجوع، ولم يجد إلّا أمّه ليصبّ عليها جام غضبه وإحباطه، رغم حبّها الشديد له؛ حبّ عجوز لابنها الوحيد. وكلَّما حثَّته على العمل أو الاستقامة، سألها متحدِّياً:

متى ترحلين عن هذه الدنيا؟

فتقول باسمة:

الله يسامحك، وماذا تفعل إذا انقطع عنك معاشي؟

- أبيع البيت.

لن تجد من يشتريه بأكثر من خمسمائة جنيه، تبدِّدها في شهرين، ثم تحترف الشحاذة.

لم يُسمعها كلمة طيِّبة قطّ، ونصحه أصدقاؤه بتغيير سياسته معها؛ حتى لا يقتلها همّاً وكمداً، ويعرِّض نفسه، حقّاً، للشحاذة.

وذكَّروه بما قال الله، وما قال الرسول، ولكن ضياعه اقتلع جذور الإيمان من قلبه المفعم بالجوع والحسرات، والتزَمَ بموقفه الساخر الساخط من الأحداث التي تمرّ به كالمعارك الحزبية والحرب العالمية، بل دعا على الدنيا بالمزيد من الهلاك والفناء، وتمادى في السخرية والاستهزاء. ويئست أمّه منه تماماً، وسلَّمت أمرها لله، ويغلبها الأسى، أحياناً، فتسأله:

لماذا تقابل حبّي بالعقوق؟

فيقول ساخراً:

من أسباب النحس، في الدنيا، أن يمتدّ العمر بالبعض أكثر من الضروري!

ومضت تكاليف الحياة في صعود. هل ثمّة مزيد من الحرمان؟، واقترح على أمّه أن يُسكِن فرداً أو أسرة في حجرة نومه، على أن ينام هو على الكنبة في حجرتها، فقالت المرأة في حيرة:

نفتح بيتنا للأغراب!

فصاح بها:

خير من الموت جوعاً.

وألقى نظرة على فناء البيت، وتمتم:

كأنه ملعب كرة، ولكن لا خير فيه!

وجاءه سمسار بطالب ريفي، فاستأجر حجرته بجنيه. وتندَّر الأصدقاء بالواقعة، فقالوا إن بيت قشتمر أصبح بنسيوناً، وأطلقوا على أمّه «مدام البقلي». ولكن، لم يكن يعتق نفسه من السخرية أمامهم، ويغني:

«وأيّام تيجي على ابن الأصول ينذلّ».

واستهان بالغارات الجويّة، بخلاف الكثيرين، فلم يستجب لزمّارة الإنذار أبداً، ولم يغادر مجلسه بالمقهى، ولا عرف طريق المخبأ. لا يهمّه هذا، ما يهمّه أن العمر يجري، وأنه يشارف الأربعين دون أن يهنأ بلقمة لذيذة أو امرأة جميلة. حتى الثورة لم يهتزّ لقيامها، وقال ساخراً:

يبدو أن هذه الثورة ضدّنا، نحن أصحاب الأملاك!

وهو لم يقرأ في حياته جريدة، ويتلقّى معلومات، دون اكتراث، في مجالس الأصحاب. ويتقدَّم به العمر حتى يتجاوز الخمسين، وطعنت أمّه في السنّ، وركبها الضعف، وأخذت تفقد الاهتمام بالأشياء، ومرَّت بها أزمة،

فتطوَّع صديق طبيب بفحصها، وشخَّصَ علَّتها بالقلب، ونصح بالراحة والدواء. كانت الراحة مستحيلة، والدواء متعذّراً، ومضى يتساءل كيف يتعامل مع الحياة، إذا حُرِم من معاشها. وراحت تقترب من الموت، ساعة بعد أخرى، حتى استيقظ، ذات صباح، فوجدها ميِّتة!. نظر إليها طويلاً، قبل أن يغطّي وجهها. خيّل إليه أنه يتذكَّر قبسات من ماضٍ بعيد، وأنه يتوقَّف- مرغماً- عن السخرية، وأن تلك اللحظة، من الصباح، كئيبة حزينة. وقصد، من توه، أغنى أصدقائه، السيِّد نوح، تاجر العمارات، فتكفَّل الرجل بتجهيز المرأة ودفنها، وحذَّره من بيع البيت، أن يجد نفسه، بعد حين، مشرَّداً في الشارع. ترى، هل يكفي الغشّ في النرد، وإيجار الحجرة؟!.. أوَلَيس لِكَرم الأصدقاء حَدّ؟ وغامر بتجربة الشحاذة في بعض أطراف المدينة، ولم تكن تجربة عميقة. وتتابعت الأيّام، فمات زعيم، وتولّى زعيم، وجاء الانفتاح وهو يستقبل عامه السبعين، من الضياع واليأس. تمادى الغلاء حقّاً، وعربد، وزلزلت الموازين. لم يعد التسوُّل بنافع وكرم الأصدقاء انحسر، وتهاوى في بئر التلاشي، رحل منهم نفر، واأسفاه!، وآوى الباقون إلى شيخوخة هادئة تقنع بالسمر. ياله من عجوز بائس!. وتنقشع ظلمات الوجود، ذات يوم، عن وجه السمسار، وهو يهبط بأجنحة ملائكية من كبد السماء!. وفي حضرة صديقَيْه: المحامي، وتاجر العمارات، تمَّت الصفقة، وأُودع المبلغ الخرافي في البنك. وجلس الثلاثة في مقهى بلديّ بشارع الأزهر، يتوافق تواضعه مع منظر المليونير التعيس. تنهَّدَ عصام البقلي في ارتياح عميق، يُغْني عن أيّ كلام. إنه سعيد سعادة كاملة، لأوَّل مرّة في حياته. ولكنه قال في حيرة:

– لا تتركاني وحدي.

فقال عثمان القلة، المحامي، ضاحكاً:

لا حاجة بك لإنسان، بعد اليوم.

ولكن السيِّد نوح قال:

إنه مجنون، وفي حاجة إلى مرشد في كلّ خطوة.

فقال البقلي بامتنان:

وأنتما خير من عرفت في حياتي.

فقال السيِّد نوح:

هنالك أولويات، قبل الشروع في أيّ عمل، غير قابلة للتأجيل، في مقدِّمتها أن تذهب إلى الحمّام الهندي لتزيل القذارة المتراكمة، وتكتشف عن شخصك الأصلي.

– أخاف ألّا يعرفوني في البنك.

وتحلق رأسك وذقنك، ونشتري لك، اليوم، بدلة جاهزة وملابس، فيمكنك الإقامة في فندق محترم، دون إثارة للريب.

– هل أقيم في الفندق، بصفة مستديمة؟

قال المحامي:

إذا شئت.. ستجد خدمة كاملة، وكلّ شيء.

فقال السيِّد نوح:

الشقّة لها مزايا، أيضاً.

فهتف البقلي:

والشقّة لا تكتمل إلّا بعروس!

- عروس!؟

لِمَ لا؟.. لست أوَّل، ولا آخر عريس في السبعين!

- إنها مشكلة!

- تذكَّرْ أن العريس مليونير.

فقال المحامي ضاحكاً:

إغراء شديد، ولكن لأولاد حرام..

فقال البقلي، باستهانة:

حرام أو حلال، كلّه واحد، في النهاية!

فقال نوح:

لا.. قد ترتد إلى التسوُّل بأسرع ممّا تتصوَّر.

وقال عثمان المحامي:

فلنؤجِّل ذلك إلى حين.

فقال عصم البقلي:

مسألة المرأة غير قابلة للتأجيل، هي أهمّ من البدلة الجاهزة.

الفرص كثيرة، والملاهي أكثر من الهمّ على القلب.

- حاجتي إليكما، في هذا الطريق، أشدّ..

- ولكنا ودَّعنا زمن العربدة، منذ أجيال.

- وكيف أسير وحدي؟

- من ترافقه النقود لا يعرف الوحدة.

وقال السيِّد نوح:

لنا جلسة أخرى، فيما بعد، للتفكير في استثمار الثروة، فمن الحكمة أن تنفق من الريع، لا من رأس المال.

فقال البقلي محتجّاً:

- تذكَّر أنني في السبعين، وبلا وريث!

- ولو!

فقال المحامي:

- المهمّ أن نبدأ.

وعندما اجتمعوا مساءً، تبدّى عصام البقلي في بشرة جديدة وبدلة جديدة. تلاشت القذارة، ولكن بقيت تعاسة الكبر والبؤس القديم. وقال المحامي:

- فالنتينو، وربّ الكعبة!

ولـمّا كان الأستاذ عثمان القلة على مودّة وتعامل مع مدير فندق النيل، فقد استأجر له حجرة ممتازة بالفندق، وسرعان ما دعاهما البقلي للعشاء على مائدته. ودارت كؤوس قليلة لفتح الشهية، وجلسوا معاً، بعد العشاء، يخطِّطون للقاء الغد، وأوصلهما حتى سيّارة السيِّد نوح، ولكنه لم يرجع إلى الفندق. استقلّ تاكسياً إلى شارع محمّد علي، ومضى، من توه، إلى محلّ الكوارع المعروف. لم يعترف بذلك العشاء المرهف، فاعتبره فاتحاً للشهية، وطلب فتّة ولحمة راس، وأكل حتى استوفى المزاج. وغادر المحلّ ليرمرم ما بين البسيمة والكنافة والبسبوسة، وكأنما أصابه جنون الطعام. وعاد إلى الفندق قبيل منتصف الليل، وقد سكر بالطعام حتى كاد يفقد الوعي. أغلق حجرته، وثِقَل غير متوقَّع يزحف على روحه وأعضائه. خلع الجاكتة بمنتهى العناء، ثم عجز عن الإتيان بأيّ حركة. استلقى فوق الفراش بالبنطلون والحذاء، وحتى النور لم يطفئه. ماذا يجثم فوق بطنه وصدره وقلبه وروحه؟ ماذا يكتم أنفاسه؟ من يقبض على عنقه؟. يفكِّر أن يستغيث، أن ينادي أحداً، أن يبحث عن موضع الجرس، أن يستعمل التليفون، ولكنه عاجز، تماماً، عن أيّ حركة. كُبِّلت

يداه وقدماه، واختفى صوته. يوجد علاج، يوجد إسعاف، ولكن، كيف السبيل إليهما؟ ما هذه الحال الغريبة التي تستلّ من الإنسان كلّ إرادة وكلّ قدرة، وتتركه عدماً في عدم؟ آه، إنه الموت، الموت يتقدَّم بلا مُدافع ولا مقاوم. ونادى- بخواطره المحمومة- المدير.. نوح.. عثمان.. الثروة.. العروس.. المرأة.. الحلم.. لا شيء يريد أن يستجيب.. لم كانت المعجزة، إذن؟.. غير معقول.. غير معقول، يا ربّ!.

«يوم الوداع»

مجلّة الدوحة - مارس 1986

يوم الوداع

الحياة ماضية بكل جلبتها كأن شيئاً لم يكن! كلّ مخلوق ينطوي على سرِّه، وينفرد به. لا يمكن أن أكون الوحيد. لو تجسَّدت خواطر الباطن لنشرت جرائم وبطولات، بالنسبة إليّ، انتهت التجربة من جرّاء حركة عمياء.. لم تبق إلّا جولة وداع. عند مفترق الطرق، تحتدم العواطف وتنبعث الذكريات.. ما أشدّ اضطرابي! تلزمني قدرة خارقة للسيطرة على نفسي. وإلّا تلاشت لحظات الوداع. انظر، وتمَلَّ كلّ شيء، وانتقل من مكان إلى مكان، ففي كلّ ركن سعادة منسيّة يجب أن تذكِّرك. يا لها من ضربة قاضية مفعمة بالحنق والغيظ والكراهية! اندفعت بقوّة طائشة ونسيان تامّ للعواقب.. تطايرت حياة لا بأس بها. انظر، وتذكَّر، واسعد، ثم احزن. لأسباب، لا وقت لإحصائها، انقلب الملاك شيطاناً. شدَّ ما يلحق الفساد بكلّ شيء طيِّب، واقتلع الحبّ من قلبي فتحجَّر. لنتناسَ ذلك في الوقت القصير الباقي. يا لها من ضربة قاضية! ما الأهمّية؟ هذا شارع بورسعيد يتحرَّك تحت مظلة من سحب الخريف البيضاء. الأبخرة المتصاعدة من صدري تغبِّش جمال الأشياء، وغمرات الحنين من الماضي البعيد تطرق أبواب قلبي، قدماي تجرّانني إلى زيارة أختي.. وجهها

الهادئ الشاحب يطالعني من وراء شراعة الباب.. يشيع فيه السرور، وتقول:

خطوات عزيزة، على غير توقُّع، في هذا الوقت الباكر..

ذهبت لتعدّ القهوة، وجلست في حجرة المعيشة أنتظر. أنظر إلى الوالدين والأخوة الراحلين من صورهم القائمة فوق المناضد. لم يبقَ لي إلّا هذه الأخت الأرمل المحرومة من الذرِّية التي وهبت موفور حبِّها لي ولسميرة وجمال. هل جئت لأوصيها بابنتي وابني؟ رجعتْ بالقهوة، ومن داخل روبها الأبيض تساءلت:

لِمَ لمْ تذهب إلى الشركة؟

- إجازة لِوَعْكة.

- واضح ذلك من وجهك، نزلة برد؟

- نعم.

- لا تهمل نفسك.

بدأ وجهي يفضحني. ترى، ماذا يجري في شقَّتي التعيسة الآن؟

- زارني، أمس، سميرة وجمال.

- إنهما يحبّانكِ كما تحبِّينهما.

- وكيف حال سهام؟

ياله من سؤال بريء!

- بخير..

- ألم يتحسَّن الجوّ بينكما؟

- لا أظنّ.

- دائماً أنصحها، وأشعر بأنها تضيق بي.

غلبني القهر فسكتّ، فقالت:

زماننا يحتاج للصبر والحكمة.

أودّ أن أوصيها بسميرة وجمال، ولكن كيف؟ سوف تدرك مغزى زيارتي، فيما بعد. هل يغفر سميرة وجمال لي ما فعلت؟ ما أشدّ اضطرابي!

- ما رأيك في أن أصحبك، الآن، إلى طبيب؟

- لا ضرورة لذلك، يا صديقة. سأذهب، الآن، لإنجاز بعض الأعمال.

- وكيف أطمئنّ عليك؟

- سأزورك غداً!

غداً؟! ها هو الطريق الجديد. انظر، وتملَّ، وانتقل من مكان إلى مكان. شاطئ اسبورتنج وحيد أيضاً، خالٍ من البشر، وأمواجه تصطفق منادية بلا مجيب. القلب يخفق تحت غلاف الهموم المحكم، ساعة خرجت من الماء بجسمها الرشيق مخضّبة الإهاب بلعاب الشمس. تلفَّعت بالبرنس،

وهرعت إلى الكابينة لتجلس عند قدمَيْ والديها. كنت أتمشّى في بنطلون قصير، فالتقت عينانا. غمرني ارتياح، ابتهج له قلبي، وناداني صوت فلبَّيت، فوجدتني في مجلسها، وكان المنادي خالها وزميلي في الشركة. تعارفنا، وجرى حديث عابر، ولكن ما كان أمتعه! لحظات من السعادة الصافية لا تشوبها شائبة، لا تتكرَّر، تأبى أن تتكرَّر. تطوف بقلبي، الآن، على هيئة حنين طائر، له وجوده الدافئ، رغم تمزُّق الخيوط التي ربطته، يوماً، بالواقع. وقولها، ذات يوم: قلبك طيِّب، والقلب الطيِّب لا يقدَّر بثمن. حقّاً؟ من- إذن- القائلة: لا يوجد من هو أخسّ أو أحقر منك؟ ومَن القائلة: ربّنا خلقك لتعذيبي وتعاستي؟ كان على الحبّ أن يصمد أمام خلافات الأمزجة، ولكن الخلافات قضت على الحبّ. كلانا عنيد، شعاره: كلّ شيء أو لا شيء. أنت مجنونة بالمظاهر الفارغة..، فتصرخ في وجهي: بل أنت متخلِّف. سميرة وجمال يلوذان بحجرتيهما مذعورَيْن. شدّ ما أسأنا إليهما! عانى الحبّ بيننا، ساعة بعد أخرى، ويوماً بعد يوم، حتى لفظ أنفاسه. اختنق في لجّة الجدل والخصام المستمرَّين، والشتائم المتبادلة. ولكن، في هذا الكازينو، في هذا الركن، بالذات، كاشفت خالها بإعجابي بها.

إنها متعلّمة، لم تدخل الجامعة، أبوها له سياسة خاصّة؛ بعد التعليم الثانوي يعدّ الفتاة للبيت اكتفاءً بدخل لا بأس به.

قلت: هذا مناسب جدّاً. دعانا – أنا وهي – إلى عشاء في سانتا لوشيا. التقينا في حديقة البجعة، بعد ذلك. أيّام الخطوبة والأحلام والسلوك المثالي. أسمع نغمة جميلة تهيم، رغم تقصُّف جميع الأوتار التي عزفتها. يا لها من ضربة قاضية! ماذا يحدث في الشقّة الآن؟ لِمَ لا تكون الحياة

أيّام خطوبة دائمة؟. آه، يا أقنعة الأكاذيب التي نتوارى خلفها!. لا غنى عن وسيلة ناجعة لمعرفة النفس.

- أستاذ مصطفى إبراهيم؟

نظرت إلى المنادي فإذا به مفتِّش بالشركة ماضياً- ولا شكّ- إلى عمل.

- أهلا عمرو بك.

- إجازة؟

- متوعِّك

- واضح جدّاً.. تحبّ أوصلك إلى أيّ مكان؟

- شكراً..

لعلّه أوّل شاهد. كلّا. رآني جاري الدكتور وأنا أغادر الشقّة. هل لا حظ شيئاً غير عادي؟ رآني البوّاب، أيضاً. لا أهمّيّة لذك. لم أفكِّر في الهرب قَطّ.. في الانتظار حتى النهاية. لولا هيامي الأخير بالوداع لذهبت بنفسي. لم أسعَ إلى نبذ الحياة باختياري. انتزعت من بين يدي عنوة، ما قصدت هذه النهاية أبداً. بيني وبين الخمسين خمس.. ورغم المعاناة فالحياة حلوة. لم تستطع سهام أن تُبَغِّضها إليّ. هل أزور سميرة وجمال بكلّيّة العلوم؟ ذهبا دون أن أراهما، ولم أكن أتوقَّع ما حدث. ولن أجد الشجاعة للنظر في عينيهما. ويعزُّ عليّ أن أتركهما لمصيرهما. أتصوَّرهما يطرقان الباب دون أن تهرع ماما لفتحه. سيخلِّف هذا اليوم أثره حتى نهاية العمر، وإذا لعناني فلهما الحقّ. متى أتناسى كربتي، وأخلص للوداع؟

انظر، وتمَلَّ، وانتقل من مكان إلى مكان. السوق.. يوم سرنا في السوق لنبتاع الدبلتين. ويشعر من يمتلك العروس أنه يتحفَّز لامتلاك الدنيا، ويشعر بأن السعادة قد تكون أيّ شيء إلّا أن تكون كالكحول، وأقول لها بوَجْد:

إلى سان جيوفاني.

فتقول مشرقة:

أُتَلفن لماما.

الرقّة والعذوبة والملائكية في أيّامنا الأولى. متى، وكيف ظهرت المرأة الجديدة؟ بعد الأمومة، ولكن دون تحديد حاسم. كيف هيمن عليّ شعور بخيبة الأمل؟ قالت لي سميرة: ما أشدّ غضبك، يا بابا، وما أسرعه! واعترفتُ لسهام مرّة قائلاً:

– قد أنسى نفسي وقت الغضب، ولكنني لا أغضب إلّا لسبب!

– وبلا سبب.. إنه سوء الفهم.

– تهدرين حياتنا في السفاسف.

– السفاسف؟.. إنك لا تفهم الحياة.

– أنتِ مستبدّة، لا وزن للعقل عندك، وما في رأسك يجب أن يتمّ، دون اعتبار لأيّ شيء.

– لو احترمت آراءك لحَقَّتْ علينا اللعنة.

انظر، وتَملَّ، وانتقل من مكان إلى مكان. أبو قير مصيف الفطرة. ليكن الغداء سمكاً. املأ بطنك، وحرِّكه بشيء من النبيذ الأبيض. هذا المكان جلسنا فيه سوياً، وعلَّمنا فيه سميرة وجمال السباحة، وهما صغيران. اهدأ، يا اضطرابي، فاليأس إحدى الرحلتين. ألم يكن الأفضل أن أطلِّقها؟

– طلِّقني، وخلِّصني.

– عزّ المُنا.. لولا إشفاقي على سميرة وجمال.

– بل تشفق على نفسك، بعد أن وضح لك أنك شخص لا يطاق.

الحقّ أني تمنَّيت كثيراً موتك، بِيَد الأقدار لا بيَدي. أيّ متاعب تهون إلى جانب حجم الكراهية. نتبادل الكراهية دون خفاء، بعد تبادل أقسى الألفاظ، وأفظعها. كيف تناولت طعامي بشهية؟ حقّاً، لليأس سعادة لا يستهان بها. وترامت من راديو أغنية «أنا والعذاب وهواك»، فارتجف قلبي. أغنية أحببتها كثيراً في ذلك الشهر المراوغ؛ شهر العسل. كيف تتلاشى السعادة بعد أن تكون أقوى من الوجود نفسه؟ تتطاير من القلوب لتعلق بأجواء الأماكن بعد اندثار مصدرها، ثم تقع كالأطيار على الأرض الجافّة، فتزخرفها بوشي أجنحتها ثواني من الزمن.أنا والعذاب وهواك، وهذه الضربة القاضية. لعلّه اليوم الذي انقضضت فيه على سميرة بجنونك، ففزعت أدفعك عنها، فسقطت على رأسك. يومها، اشتعلت في عينيك نظرة غير إنسانية تمجّ سمّاً:

– إني أكرهك.

– في داهية.

- أكرهك حتى الموت.

- إلى الجحيم.

- إذا تعكَّر قلبي، فهيهات أن يصفو.

هي الحقيقة- للأسف- يا ذات القلب الأسود. لم يجْدِ اعتذار أو مجاملة أو توادد. ولم يجرِ بيننا حديث بعد ذلك، إلّا عن الواجبات والميزانية. واختلط الانتقام بتكاليف المعيشة، ونضب معين الرحمة. حامت أحلامي حول الهروب كالسجين أو الأسير. جفّت رغبات قلبي، وأطبقت عليه الوحشة. وراحت تتصرَّف تصرُّف المرأة الحرّة، فتذهب وتجيء، بلا إذن أو إخطار. يلفّها الصمت، فلا تندّ عنها كلمة إلّا للضرورة. وانطوت على سرّها كبرياءً، فلم تشكُني إلّا لأختي صدّيقة، ولمّا لم تقم بما توقَّعته منها، وقصدت التوفيق، كرهَتْها بدورها، وقالت: إنه ليس بجنون رجل، ولكنه جنون متوارَث عن أسرة. وانتهزتُ فرصة انفرادي بسميرة وجمال، فسألت عن رأيهما فيما يشهدان من أحوالنا. قال جمال:

- حالكما لا يسرّ، يا بابا، كحال بلدنا أو أسوأ، لذلك فإني سأهاجر في أوّل فرصة.

أعرف الكثير عن تمرُّده، أمّا سميرة فبنت عاقلة، متديِّنة وعصرية، في آن، ولكنها قالت:

- معذرة، يا بابا: لا تسامُحَ من ناحيتك أو ناحيتها.

- كنت أدافع عنك، يا سميرة.

– ليتك ما فعلت، كانت ستصالحني بعد ساعة، لكنك سريع الغضب، يا بابا.

– لكنها غير معقولة.

– بيتنا كلّه غير معقول!

– اخترتك قاضية.

– كلّا.. لا يحقّ لي هذا، أبداً.

– لم أجد عندكما أيّ عزاء.

فقال جمال:

– لا عزاء عندنا، ولا عزاء لنا.

إذا لم يحبّني هذان الاثنان كما أحبّهما، فأيّ خير أرجو في هذا الوجود؟!. آه. انظر، وتمَلَّ، وانتقل من مكان إلى مكان. بحقّ الحياة الضائعة، عش الساعة التي أنت فيها، وانسَ الماضي تماماً، املأ عينيك، فما تغادره لن تراه مرّةً أخرى. كلّ لحظة هي اللحظة الأخيرة، من دنيا لم أشبع منها، ولم أزهد فيها، وانتُزِعَت من بين يديّ في هوجة غضب. أيّ شارع من هذه الشوارع لم يشهدنا معاً، أو يشهد أسرتنا الكاملة، وسميرة وجمال يتقدَّماننا؟ ألم تكن توجد وسيلة لإصلاح ذات البين؟ أقسى عقوبة أن تودِّع الإسكندرية في مجلى خريفها الأبيض، وفي عنفوان الرجولة والرشاد، وهذا هو البحر الصامت في الناحية الأخرى من أبوقير. ونغنّي معاً: «يا للنعيم اللي انت فيه، يا قلبي»، في حوار غنائي بين قلبين يقظين، وسميرة

وجمال مبهوران بعَدّ قوارب الصيد الراسية فوق شعاع القمر. هل يكفي يوم واحد للطواف بمعالم ربع قرن؟ لِمَ لا نسجّل الاعترافات العذبة في إبّانها؛ لعلّها تنفعنا وقت الجفاف؟ الذكريات كثيرة مثل أوراق الشجر، والمدّة الباقية قصيرة مثل السعادة. السعادة تغيِّب الوعي حين حضورها، وتراوغنا بعد زوالها. ومن لي بمَن يجمعني بـ(دولت)؟ لا سبيل إلى ذلك اليوم، ولو تيسَّر لزادني ارتباكاً، وفُضِح أمري قبل الألوان. وما جدوى ادِّعاء حبّ لا وجود له، اليأس وراء انزلاقي فيه؟ ولم تكفّ، أبداً، عن التلويح لي بالزواج، دون اكتراث لمصير سميرة وجمال. ليس هو بحبّ، ولكنه نزوة انتقام. ليتني وقفت عنده، ولم أعبره للضربة القاضية. المساء يهبط، والبحث عني يشتدّ، ولا شكّ. فلأنتظر في «أستريا»؛ أحبّ أماكن المساء إليّ، مجمع الأسرار والعشّاق والأحلام الوردية. الجعة والعشاء الخفيف والمرطّبات. ربّما أكون المنفرد بنفسه الوحيد. معذرة، يا سميرة، معذرة يا جمال، استقبلت الصباح بنيّة صافية، ولكنه الغضب يطوِّح بنا فوق المحاذير. ضرعت إلى الساعة أن تتأخَّر دقيقة واحدة، ولمّا تلاشت التوتُّرات العنيفة، لم يبق إلّا اليأس، بوجهه الثلجي الأبكم. وجلتُ جولة الوداع، يتبعني الموت، حيناً، ويتقدّمني، حيناً آخر. اخترت العمر في ساعات، فعرفت الحياة أكثر من أيّ وقت مضى. ما أسعد الناس من حولي! ولو وقفوا على سرّي لسعدوا أكثر. ويسألني النادل مجاملاً:

أين الهانم؟

فأجبته باكتئاب خفيّ:

مسافرة.

لم يعد في الوقت بقيّة. عمّا قريب سيقترب مني رجلان أو أكثر:

– حضرتك مصطفى إبراهيم.

نعم، يا فندم.

– تسمح تتفضَّل معنا؟

أقول بهدوء كامل:

كنت في انتظاركم.

الفجر الكاذب

(مجلّة الدوحة - مايو 1986)

الفجر الكاذب

كأنما هو سباق بيني وبين قرص الشمس المائل نحو الغروب. بلغت شارع ابن ياسر، المكلَّل بأشجار الأكاسيا، على جانبيه، تستبق فوق أديمه السيّارات في تيّارات متدفِّقة، وتقوم العمارة في موقع من وسطه، بمدخلها الواسع الممتدّ، وضوئها المشعّ من داخل الجدران الشفّافة. رفعني المصعد إلى الدور الثامن. ضغطت على الجرس ففتحت الشراعة عن وجه الخادم، تقدّمني إلى الثويّ المكوَّن من ثلاث حجرات متَّصلة، فجلست على مقعدي في الأعماق. أزاح الرجل ستارة وفتح نافذة، فتدفَّق هواء الخريف، وهلَّت سيِّدتي في فستان أزرق، آية في البساطة والرقّة، وشبشب أزرق مذهَّب السِّيْر، ترنو إليَّ بعينيها النجلاوين الثاقبتين، وأنا أتعجَّب من صفاء بشرتها. سألتني عمّا أحبّ أن أشرب، فطلبت القهوة، فقالت إنها سلَّت بعض فراغها بصنع شيكولاتة بالبسكويت، قلت: إذن، أتناول واحدة، وأمرت لي بما طلبت، ونظرت في وجهي مليّاً، وقالت:

– واضح أنك لم تتقدَّم خطوة مفيدة.

فقلت، في تسليم:

– هذه هي الحقيقة.

تساءلت ضاحكة:

– ترى أهو ذنب المشكلة، أم ذنبك؟

– لا أدافع عن نفسي، ولكن لا يمكن أن أُتَّهم بالإهمال.

– كأننا لم نبدأ بعد!

– وهذا ما يؤرِّقني.

وجاء الخادم، دافعاً أمامه خواناً يحمل القهوة والشيكولاتة، وتركتني أحتسي القهوة في هدوء، ودون أن يزايلني التوتر. قلت، برجاء:

– لا تسيئي بي الظنّ.

– تهمّني النتائج لا النوايا أو الأقوال.

نحن في زمن عجيب، شهدنا إنساناً يهبط فوق سطح القمر، ونرى السوق ملأى بكتب عن القوّة الخفية...

– لا يعني هذا أن يقف الانسان مكتوف اليدين، وهو يعلم أنه عرضة للهلاك في أيّ لحظة.

– لم أقف مكتوف اليدين، وطالما أتعبت سعادتك معي.

– أمرك يهمّني، كما تعلم.

فبسطت راحتي على صدري، وأحنيت رأسي شاكراً، ثم قلت:

- طبعاً، سمعت عن الذي قتل والديه؟

- والتي قتلت ابنها، وقديماً سمعنا عن ريّا وسكينة، ماذا تريد أن تقول؟

- يشعرني ذلك باقتراب القدر.

فقامت لتغادر المكان، وهي تقول:

- سأحرِّر لك رسالة للبك.

وغابت حوالي ربع ساعة، ثم رجعت، فسلَّمتني رسالة مطويّة في مظروف مغلق، وتساءلت:

- هل تبقى للعشاء؟

فقمت بدوري شاكراً، وغادرت الشقّة. ليل الخريف هبط بسرعته المألوفة، وأضواء السيارات المبهرة اقتحمت الأعين، وذكريات متلاطمة تفعل بإحساسي ما تفعله أضواء السيارات المبهرة، ولكنها تختفي وتضيع قبل أن أقبض عليها. فالدنيا تبدو مراوغة، مثيرة للحيرة والقلق. ومضيت، من تويّ، إلى شارع البورصة، إلى مشرب الزهرة، الصغير الأنيق الذي لايتلاشى الجالس فيه. طلبت من النادل سندوتش لحم بقري، وقدح شاي، وقال لي قبل أن يذهب:

سأَلتْ عنك.. وستجيء لمقابلتك بعد قليل. سررت بذلك. وتناولت عشائي، وانتظرت. ولم يطل بي الانتظار، فجاءت تخطر في بنطلونها، بجسمها

الرشيق الثري، ووجها الأسمر الصافي المنمَّق، وقد ارتدت جاكتة من الجلد البنّي، وطلبت الشاي، كالعادة، وهي تنظر إليّ في عتاب:

– لم أرك منذ أيام.

– آسف، أنا غريق في مشكلتي، وأمضي من وسيط إلى وسيط.

– لم يمنعك ذلك من ملاحقتي كظلّي، في وقت مضى.

– لا يمنعني عنك إلّا عذر قاهر.

– ولكنك تدور في حلقة مفرغة، لا ترى لها نهاية.

– لولا أنه يوجد في الدنيا أمل، كالذي تعدينني به، لانتهيت من زمن بعيد.

استشعرت شيئاً من الحياء، وهي تتساءل:

– لماذا تصرّ على تأجيل زواجنا، حتى تحلّ جميع مشكلاتك؟

– هذا هو التصوُّر الطبيعي.

– ولكن الزواج يهيِّئ لك نصف الأمان، على الأقلّ، فأخي من كبار رجال الشرطة!

فقلت، وأنا أنظر في عينيها، بإشفاق:

– خصمي شخص مجهول.

– هو– أيضاً– لم يهتدِ إليك بعد، وقد يساعدك أخي على معرفته.

أتمنّى أن أتزوَّج وأنا رائق البال.

– لا عقبة في طريقنا إلّا ما ينبثق من ذاتك.

عاودتني عواطف صافية من زمن مضى، فرمقتها بحنان وحبّ، وقلت:

– فلنجلس.. لنحلم في عذوبة وهدوء، وقريباً سوف تنقشع الهموم.

وتبادلناً حبّاً عميقاً، بلا كلمة ولا حركة. وفي لحظات عابرة، بدت الدنيا مراوغة، وتلاشت حبيبتي من مجلسها القريب، وعادت، مرّةً أخرى، مشرقة الوجه، فواصلنا الحبَّ المتبادل الصامت. ولمّا تركتني تذكَّرت بزهوّ، عنادي في مطاردتها، حتى انتزعت من صميم قلبها الاعتراف بالحبّ. وأمدَّني اللقاء بحماس جديد، فقمت لأقابل البك، وأسلِّمه الرسالة.

ذهبت إلى النادي بشارع الشطّ الأخضر. وجدته جالساً، مع نخبة من الأصدقاء، في الشرفة المطلّة على الحديقة الواسعة، ولما رآني مقترباً قام مستأذناً من صحبه، وصافحني إكراماً- طبعاً- للهانم، ومضى بي إلى الثويّ الأخضر. أجلسني قريباً منه، ونظر إليَّ بعينيه الثقيلتين، وبوجه لا يعبِّر عن شيء، وسألني:

هل من جديد؟

فقلت بأسى:

أقابل أناساً، وأتلقّى وعوداً.

وتناول مني الرسالة، وأبقاها في يده المنبسطة، وتساءل:

ألّا يقنعك هذا؟

- أريد أن يتحقَّق وعد.

- لكلّ عمل يشغله، هذه أيّام الصرف الصحّي، والعدوان على تونس، وخطف السفينة الإيطالية، ثم خطف الطيارة المصرية.. والدولار.

- مشكلتي غاية في البساطة.

أنت تتصوَّر ذلك. لا، انظر إلى الموضوع بعين محايدة.

- لكن حياتي مهدَّدة!

- هل تعرف عدد الفلسطينيين الذين قتلهم الإسرائيليون، والفلسطينيين الذين قتلهم العرب، وضحايا العنصرية في جنوب أفريقيا، والطائفية في لبنان، وضحايا الزلازال والبراكين، والسموم البيضاء، والمظاهرات؟ فقلت، وأنا أنظر بين قدمي:

- ما عليَّ- إذن- إلّا أن استسلم للموت.

- بل أعني أن تصبر، وتعتمد على النفس.

- أليس من الحكمة أن أستثمر علاقاتي بالرجال الكبار؟

- لن ينقذك إلّا اعتمادك على نفسك، أفعل ما فعله رمسيس الثاني، عندما حاصره الحيثيون، وأوقعوه في الشرك.

فقلت، وأنا أداري ابتسامة:

- سيِّدي، أنا لست رمسيس الثاني.

- لتكن رمسيس المائة أو الألف.

وتنبَّه للرسالة بين يديه، فقصَّ المظروف، وقرأها بعناية، ونادى النادل فطلب رسالة ومظروفاً. وفي تلك الأثناء، هفَّت إلى أنفي رائحة مسك، فلم أستطع أن أخفي اضطرابي، فسألني عما ألمَّ بي، فكاشفته بما تردّده الشائعات عن خصمي المجهول، قلت:

إنه يتطيَّب- عادةً- بالمسك.

فقال الرجل، بضجر:

وغيره كثيرون.. لا أظنّه عضواً في نادينا.

وغرقت في مستنقع الهواجس، على حين راح هو يكتب التوصية الجديدة، ثم سلَّمها إليّ في مظروف مغلق. وغادرت النادي، ولمّا قرأت اسم الوسيط الجديد رأيت أن أذهب إليه ضحى الغد. وذهبت إلى مسكني بشارع الجندي المجهول، غيَّرت ملابسي، وجلست أمام التلفزيون أشاهد فيلماً، بطله سيارة تندفع ذاتياً، وتقتل مَنْ يصادفها من البشر. شقَّتي صغيرة بالية، لكن الزمن رفعها ألف درجة، وجعل منها درّة لايفوز بها إلّا ذو حظّ سعيد.

وقد أقمت بها مع قريب على عهد التلمذة، ثم استقللت بها، بعد انتهاء دراستي الجامعية وتعييني في الوزارة. ورنّ جرس الشقّة، فعاودني الشكّ الذي اجتاحني حين شممت رائحة المسك، ومضيت إلى العين

السحرية فطالعني وجه جارتي المقيمة في الشقّة المواجهة لشقّتي. ماذا جاء بها، دون طلب أو اتِّفاق؟

دخلت ملتفّةً في روب وردي، مشرقة الوجه بالزواق، ولمّا رأت فتور وجهي، قالت:

لا تحبّ أن تراني إلّا وقت الحاجة.

وجلست على مقعد قريب من مقعدي، وهي تقول:

لا يوجد زبائن! فقلت أسلّي وحدتي بجلسة بريئة!

ثم، بعد صمت:

ماذا جرى للزبائن؟

فقلت، دون أدنى اكتراث:

لعلّها الحالة الاقتصاديّة.

- أنا لا أتعامل بالدولار.

وتفحَّصتني قليلاً، ثم قالت:

مازلت غارقاً في همومك؟

- طبعاً.

يوجد في قريتي من يصمِّم على قتلي، لو عثر عليّ، ولكني لا أفكِّر في الغد.

فقلت، بحياء:

كل شيخ وله طريقة.

- لكلٍّ أجله، وهو يعمل مستقلّاً عن الأسباب.

فقلت، وأنا أداري غيظي:

فلسفة عظيمة، أنت امرأة سعيدة.

- لا .. وزني ثقيل، وهو آخذ في الازدياد، وتسبَّب في حرماني من تعلُّم الرقص.

- ولكن الشهرة ليست في صالحك، وقد تدلّ عليك من يريد قتلك.

وانقطع حبل الحديث، ولم تجد، من ناحيتي، أيّ رغبة في وصله، فسلَّمت بفشل مهمّتها، وانصرفت وهي تلوِّح لي مودِّعة. وأنا أهمّ بالنوم، عاودني الإحساس بأن الدنيا تراوغني، فخُيِّل إليَّ أن جارتي لم تأتِ لزيارتي، وخيِّل إليَّ، حينا آخر، أنها ترقد إلى جانبي. وفي الصباح، ذهبت إلى الوزارة؛ هي المكان الوحيد الذي ألقى فيه الاحترام، وأسمع الثناء تلو الثناء، ولي زميل غاية في الدماثة والمودّة، وهو يحثّني دائماً على أن أعيش حياتي، وأن أستهين بالظنون والأقاويل التي لا يقوم عليها دليل مادّي. يقول لي:

من منّا لا يتربَّص به الموت؟

ودعاني ذلك الصباح إلى الاشتراك في رحلة إلى جنوب سيناء، فوعدته بالتفكير في الأمر. وعند الساعة العاشرة، استأذنت في الانصراف لعذر هامّ،

وغادرت المؤسَّسة إلى شارع الوادي الجديد، حيث توجد عيادة الوسيط الجديد الذي أحمل إليه الرسالة. ورجوت التمورجي أن يوصل الرسالة إلى الطبيب، فذهب بها، ثم عاد بعد دقائق ليأذن لي في الدخول فوراً.

وجدت الطبيب جالساً وراء مكتبه، يطالعني بشخصية قويّة وعينين نافذتين، غير أنه توكَّد لدي ما يحظى به صاحب الرسالة من منزلة فريدة عنده. قلت:

أعتقد أني قادم إلى سعادتك، بصفتك الشخصية لا المهنية.

فسألني بجدِّيّة:

ماذا الذي حملك على هذا الاعتقاد؟

– مشكلتي، بل كلّ مشاكلي، لا علاقة لها بالطبّ.

لكن الطبّ له علاقة بكلّ مشكلة، على أيّ حال ظنّك في محلِّه، وما نريد إلّا أن تمكث في مصحّة لي بحلوان، فترة من الزمن، حيث يتهيَّأ الأمان والأمن.

– ولكني بعد خروجي، سأرجع إلى ما كنت فيه.

– أو يكون ا لوسطاء قد تمكَّنوا من تصفية مشكلاتك، في أثناء ذلك.

– ولكن المصحّة ستسيء إلى سمعتي!

– في مصحّتنا تعيش في سرِّيّة كاملة.

وتردَّدت متفكِّراً، فتساءل:

ألّا يوجد في حياتك ما تخجل منه أو تندم عليه؟

- هذه مسألة أخرى.

- بل لعلّ كثيراً من المشاكل يرجع إليها.

فقلت، بيأس:

- إذن، فأنا ذاهب للعلاج.

- لن أفرض عليك شيئاً لا تريده.

وقلت بمرارة، وكأنما أخاطب نفسي:

- كيف أعيش بين مجانين!

فتساءل متهكّماً:

وهل تعتبر نفسك عائشاً بين عقلاء؟!

وانفجر قلقي، فقلت:

معذرة، يا سيِّدي، لن أذهب إلى المصحّة.

فقال، بهدوء كريه:

في هذه الحالة، سأوصي إليك بأن يتركوك لشأنك، دون رعاية أو عناية.

فقلبت النغمة قائلاً:

أعطني مهلة قصيرة.

فقال موافقاً:

لك ذلك.

أنفقت بقيّة النهار متسكِّعاً، وتجاذبتني، طوال الوقت، الحقائق والأحلام، ولم يتبقّ إلّا خطوة يسيرة لأتساءل عمّن أكون، وفي أيّ مكان أقيم، والزمان الذي أعاصره. ورجعت مساءً إلى عمارتي ولكني قصدت شقّة الجارة لا شقّتي، وخيل إليَّ انها استقبلتني دون مبالاة، و- ربَّما- بشيء من الجفاء، وكأنما تعاقبني على إعراضي عنها ليلة أمس. ولكن مسكنها يضفي عليَّ شعوراً بالألفة، ولا يخلو من فتور وشجر وإحساس شبه خفيّ بالخيبة. وهو بعيد كلّ البعد عما يجده الزائر المتسلِّل من التوتُّر والمغامرة. ولكيلا تتساءل عن سرّ غيابي الوشيك، زعمت لها أني راحل إلى قريتي لمهمّة طارئة. وفي الصباح، أعددت حقيبتي، وذهبت إلى المصحّة بحلوان، وهي مبنى رائع يقع في أقصى المدينة، ويقوم على هضبة تطلّ على الصحراء، واخترقت حديقة واسعة لأصل إلى البناء في العمق، وقادوني إلى جناح يتكوَّن من صفّ طويل من الحجرات، تفتح أبوابها على ممشى طويل، يتَّصل بالحديقة بسلَّم رخامي يشغل الوسط. وتبدَّت حجرتي بيضاء الجدران والسقف، بها ما يلزم من فراش وصوان وخوان ومقعدان. ولبثت وحيداً، حتى جاءتني ممرِّضة ناضجة الشخصية والأنوثة، بالغداء. سألتها عن الطبيب، فأجابت، بأدب:

سيجي في وقته!

وأعطتني قارورة صغيرة تشفّ عن أقراص بيضاء خالية من أيّ ملصقات، وقالت:

حبّة بعد كلّ وجبة.

فقلت محتجّاً:

ولكنني لست مريضاً.

فقالت بهدوء، وهي تغادرني:

ليست مصحّتنا للمرضى، ولكنها للراحة والأمان.

وأخذت أشعر بالندم على المجيء، وأنتظر في ملل متصاعد. وفي تمام الخامسة مساءً، انفتح الباب، ودخل الطبيب. جلس على المقعد الآخر أمامي، وقال:

بداية حسنة، فانْعَم بالأمن والأمان.

فقلت بقلق:

ولكني أتعاطى دواءً.

– ما هو إلّا مهدِّئ وفاتح للشهية.

– ومتى يُستحسَن أن أذهب؟

وقتما تشاء، من ناحية المبدأ. أمّا إذا راعينا مصلحتك، فالأوفق أن تذهب بعد أن تؤدِّي الامتحان.

- أيّ امتحان، يا سيِّدي؟

ما عليك إلّا أن تسجِّل على الورق أكبر مشكلة مصرية، وأكبر مشكلة عالمية، ثم تفكِّر في الحلّ المناسب لكلّ منهما.

فندت عني ضحكة عالية، وقلت:

لا شكّ أنك تمزح، يا سيدي.

فقال بجدية وبرود:

ليست مصحَّتي مسرحاً فكاهياً.

فقلت متراجعاً:

معنى هذا أنني سأبقى هنا، إلى الأبد.

- إنها محاولة لمعرفة تصوُّرك ليس إلّا، وعقب ذلك تذهب بسلام.

- ولكن، ما علاقة ذلك بمشكلتي أنا؟

- إذا استطعت أن تقدِّم تصوُّراً لحلّ مشكلتَيْ مصر والعالم، فلا شكّ أنك تستطيع ذلك، بالنسبة إلى مشكلتك الخاصّة.

- لكن مشكلتي من نوع خاصّ.

- ولو، لن تكون أعقد من مشاكل العالم.

أنت تعلم- ولا شكّ- أنني مهدَّد بالقتل في أيّ لحظة.

كلُّنا مهدَّدون بالقتل، في أيّ لحظة!

وسكتُّ مغلوباً على أمري، حتى هَمَّ بالذهاب، فسألته:

هل يشترط أن تكون الإجابة صحيحة؟

- لا أحد يزعم أنه يعرف الإجابة الصحيحة ليقيس عليها، حسبك أن تقدِّم تصوُّراً معقولاً.

وعلى أثر ذهابه، جاءتني الممرِّضة بورقة مسطَّرة وقلم رصاص، ووضعتهما على الخوان، جذبتني، بقوّة، إلى أنوثتها ونضجها، دون أن تتكلَّف كلمة أو حركة. وانبعثت فيَّ آمال عجيبة ملأتني جرأة، وفي الوقت نفسه محت صورتها، من قلبي، العالقَ من خطيبتي، وجارتي. قلت لها:

إني مدين لك بحسن الرعاية.

فقالت بجدِّيّة وحياء:

- إني أؤدّي واجبي،

ونظرت إلى خاتم الزواج في يسراها، وتساءلت:

سعيدة في زواجك؟

فقالت بدهشة:

سؤال غريب!

- لا مؤاخذة، ولكنّ لي هدفاً.

- أيّ هدف؟

إذا خطر لك أن تجرِّبي حظَّك من جديد، فإنني على أتمّ الاستعداد للزواج منك.

فغادرت الحجرة، دون أن تنبس بكلمة.

وسرَتْ فيّ قشعريرة إحباط وبرودة، وضقت بالحجرة، فخرجت إلى الممشى. بعض النزلاء يجلسون أمام الحجرات أو يتمشّون. جاري رجل في الأربعين، حدجني باهتمام، فتبادلنا التحية، واقترب مني، وسألني عمّا جاء بي، فلخَّصت له الموقف، في شيء من التحفُّظ، ثم سألته- بدوري- عمّا جاء به، فقال:

لعلّي الوحيد بينكم الذي جاء بلا مشكلة!

- ولكن، كيف؟

- أنا رجل ميسور الحال، صاحب مزاج، أحبّ السرور والرحلات، ولا أحمل للدنيا همّاً.

- عظيم.. عظيم..

لي صديق مشترك بيني وبين الطبيب، هاله أن يجدني بلا مشكلة، وأصرَّ على أن أعيش في المصحّة مدّة.

- جئت لأنك بلا مشكلة!

- هذا هو الواقع.

- وكيف قُبِلت؟

- قلت: لتكن تسلية جديدة.

- وهل أدَّيت الامتحان؟

هذه هي مشكلتي الجديدة، فلا علم لي عن أيّ مشكلة في مصر أو العالم، ولا أقرأ من الصحيفة إلّا الإعلانات، والوفيات، وأين تذهب هذا المساء.

- ما عليك إلّا أن تقرأ الصحف، وستمدّك بمشكلات لا حصر لها.

فتساءل ضاحكاً:

وكيف أقدِّم حلولاً لمشكلات لا تهمّني، البتة؟

والحقّ أنه امتصّ مني توتُّري بغرابة مشكلته، وفتح نفسي للرجوع إلى حجرتي لأداء الامتحان المطلوب مني. وعند منتصف الليل، آويت إلى فراشي، ونمت نوماً عميقاً. وفي الصباح الباكر، جاءتني المرِّضة بالإفطار.

وجاءت معها برائحة، ما إن شممتها حتى ارتعدت أطرافي. ولمّا لاحظت تغيُّري، سألتني عمّا ألمَّ بي، فقلت بقلق لم أستطع أن أداريه:

هذه الرائحة!

فقالت بثقة:

رائحة المسك أطيب الروائح.

- من أين لك بها؟

- أهدانيها أحد زوّار النزلاء.

- هل يتردَّد على المصحّة من زمن؟

- منذ أكثر من شهر، ألا تعجبك؟

فقلت متحفِّظاً:

هي مرتبطة، في حياتي، بذكريات غير سارّة!

فقالت بمرح:

فكّ الارتباط، وتناول إفطارك.

ونضب إعجابي بالممرِّضة، وتبخَّر، ولعلّها شعرت بذلك، على نحو ما، فتساءلت بجدِّيّة:

هل فرغت من تسجيل المشكلات لآخذها إلى الدكتور؟

وفي الحال، أعطيتها الورقة لأتخلَّص منها في أقصر مدّة. وجاءني الطبيب قبيل الظهر، دعاني إلى الجلوس أمامه واضعاً الخوان بيننا.

ألقى على ورقتي نظرة جديدة، وقال:

أنت ترى أن مشكلة مصر الأولى تتركَّز في عدد السكان؟

- هي أمّ المشاكل كلّها.

- عظيم، أي حَلّ تقترح لها؟

– يجب أن يهبط العدد إلى ما يتناسب مع الإمكانات المتاحة فَتُحَلّ جميع المشكلات دفعةً واحدة.

– وكيف نتخلَّص من الزائد؟

– بالهجرة الدائمة، وقتل الباقي بوسيلة رحيمة خالية من الألم!

– يا لك من رجل رحيم!

– كل عاقل يجب أن يعتبرني كذلك.

– ومن حسن الحظّ أنني عاقل. والآن، ننتقل إلى العالم، فأنت ترى أن الحرب النووية هي مشكلته الأولى؟

– نعم..

– فكيف ترى العلاج؟

– أن تقوم الحرب، وتقضي على العالم، وتخلِّصه من مخاوفه.

– ولكن الإبادة ستلتهم المخاوف والخائفين معاً.

– أو يبقى نفر، كالذين نجوا من الطوفان.

– الحقّ أن تفكيرك لا يخلو من رحمة وكمال، دائماً!

وتبادلنا نظرة طويلة، ثم سألته بقلق:

هل أستطيع أن أذهب الآن؟

فقال، وهو يقوم تأهُّباً للذهاب:

بيدك وحدك أن تذهب، وقتما تشاء.

وفي الحال، أعددت حقيبتي وذهبت. ذهبت أسوأ ممّا جئت، ولكن روح استهانة استحوذت عليَّ، وأملت على أن أمضي في حياتي، دون اعتبار لأي شيء إلّا الحياة نفسها. ونازعتني نفسي إلى لقاء الهانم التي لولا عطفها لهلكت من زمن بعيد. وعند العصر أقبلت عليّ في ثوبها متلفِّعةً بروب خفيف بنفسجي، زادها جمالاً وصفاءً. جلسنا حول إبريق الشاي، وهي تقول:

لم يفتني شيء من أخبارك، وإني مسرورة بما سمعت.

فنظرت إليها بارتياب، وقلت:

تجربة المصحّة تجربة غريبة، و- في جملتها- غير سارّة، وحتى هنا طاردتني رائحة المسك.

فابتسمت عن لآلئها، وقالت:

الطبيب مرتاح ومتفائل، ويجب أن تطمئن إلى حكمه فهو ثقة علّامة.

وتردَّدت قليلاً، ثم قلت:

عَنَّ لي أن أزور قارئة الفنجان المشهورة.. فابتسمت قائلة:

كما تشاء، الحقيقة اتَّسعت في أيّامنا هذه، حتى شملت كلّ شيء.

وقبَّلت يدها، وغادرت مقامها إلى مصر القديمة، إلى مسكن المرأة التي شغل ذكرها صحفنا الكبرى. وجدت حجرة الانتظار مزدحمة، فطال انتظاري حتى أوشك صبري أن ينفد، ثم جلست أمامها على مقعد صغير مريح الوسادة، وحسوت فنجان القهوة، وراحت تتأمَّله بعناية، وطال تأمُّلها، حتى قطَّبت كالحائرة، ثم قالت:

لا أدري كيف أقرأ مستقبلك.

فتساءلت منزعجاً:

أهو غامض لهذه الدرجة؟

– المسألة أن نجاتك أو هلاكك بيدك أنت، فليس عندي ما أقوله.

– لي خصم عنيد مجهول.

– نعم، أنت مجهول أمامه أيضاً، وهو يخشاك كما تخشاه.

– لم يعرفني بعد؟

– بلى، رغم أن الحياة جمعت بينكما أكثر من مرّة!

– جمعت بيننا؟

– هذا واضح.

– أليس لديك معلومة إضافية تبلّ الريق؟

– قلت ما عندي، والله معك.

تركتها مُشَتَّت الخاطر، ينهمر فوق رأسي القلق من سماء ملبَّدة بالغيوم. تقول إن الحياة جمعت بيننا أكثر من مرّة! اللعنة، فهو- اذن- أحد سكّان العمارة أو زميل في الوزارة، و- ربَّما- يكون البك أو طبيب المصحّة! وذهبت إلى الزهرة لأتناول لقمة وأتمالك أنفاسي. سرح بي الخيال إلى عهد الطمأنينة والسلام، قبل أن أطلب يد خطيبتي، وكيف نما إلى علمي أن نفراً من أهلها اقترحوا رفضي، لِهَوان أصلي.

ومع أن خطيبتي ذلَّلت العقبات بقوّة إرادتها، إلّا أن اقتراح الرفض آلمني جدّاً، ودفعني إلى النبش في الماضي؛ لعلي أعثر على أصل كريم غابر، أخنى عليه دهر لا يرحم. وأهلتني دراستي الجامعية للبحث، فتوغّلت فيه بإصرار، ومازلت أنتقل من جَدّ فقير إلى آخر أجير، حتى اهتديت إلى جَدّ خطير في عصر غابر. كيف تدهور ذلك الجدّ العظيم؟ لقد تمرَّد على أبيه فحرمه من الميراث، واستقبلت ذرّيّته تاريخاً طويلاً من الفقر والذلّ، وعرفت، من التاريخ، سرّ النزاع القديم الذي اتَّخذ من الثأر المتوارث وسيلة متجدِّدة ومقدَّسة فتك بها بأرواح لا تحصى من أبناء الأسرة، جيلاً بعد جيل، لا يعفى منها غنيّ أو فقير. وقدَّرت- بالحساب الدقيق- أنني المرشَّح، اليوم، للقتل، لا يؤخِّر الأجل عني إلّا الخصم الذي لم يهتد إليَّ بعد. هكذا، استوعبتني مشاكل الأصل والموت، فلم تبق من حيويَّتي إلّا القليل لمشكلات الحياة اليومية الملحّة. وطبيب المصحّة يرى أن تصوُّري لحلّ مشاكل مصر والعالم قادر- ضمناً- على حلّ مشكلتي المؤرِّقة، ولكن من يضمن لي الحياة حتى تحلّ مشاكل مصر والعالم؟!. وتاقت نفسي للخروج من قصر التيه، بأيّ ثمن، ولأن أحيا حياتي مهما كلَّفني الأمر. ودعوت خطيبتي إلى لقاء بالزهرة، في أصيل اليوم التالي. ولبَّت- كالعادة-

بكلّ حيويّتها، واستجابتها العذبة، وقصصت عليها حكايتي مع قارئة الفنجان، منتظراً تعليقها. قالت باسمة:

هذا يعني أنه يحتمل أن أكون أنا خصمك المجهول!

ثم، بجدِّيّة:

احذر أن تسيء الظنّ بالجميع، فتصبح وحيداً منبوذاً.

فقلت بنبرة واضحة وقويّة:

– لا أود أن أموت، قبل أن أموت.

– يسعدني أن أسمع ذلك.

– وأودّ أن نتزوَّج في الحال.

فوهبتني الموافقة بنظرة عينيها، ودون كلام. وأنا على أتمّ استعداد، والحمد لله، واتَّفقت مع مقاول من المتردِّدين على الوزارة لتجديد شقَّتي الصغيرة العتيقة: يغيِّر أرضيَّتها، ويصلح النوافذ، ويدهن الجدران والأسقف، ويعيد بناء الحمّام ودورة المياه والمطبخ. ولمّا انتهى العمل في الشقّة، مضوا يفرشونها بجهاز العروس، تحت إشراف خطيبتي وأمّها وأخيها، ضابط الشرطة. ولمّا كُلِّل التعب بحسن الختام، إذا بحماتي تقول، بنبرة ذات مغزى:

لابدّ من فرحة!

– لكن مدَّخراتي أوشكت على النفاد. همست بذلك، فقالت الستّ:

لا نريد حفلاً في فندق، حسبنا عشاء لائق في مطعم خلوي، وبلا رقص أو غناء!

ولبَّيت رغبتها، على رغمي. واقتصرت الدعوة على الأهل، غير أني دعوت الهانم فشرَّفَتنا مع هدية سعيدة، متبرِّعة للاجتماع بفرقة «كان كان» الموسيقية. جلسنا متواجهين حول مائدة طويلة، ورأيت بين المدعوِّين البك وطبيب المصحّة، دون أن أدري كيف تَمَّ ذلك. وعاودني إحساسي الغريب بمراوغة الدنيا، والذكريات الغامضة، لكن سعادتي بالعروس غلبت على كلّ شيء. وخطر لي، في أثناء تناول الطعام، أن خصمي المجهول موجود- حتماً- بين المدعوّين، ولكني طردت الفكرة بإصرار، وواصلت الأكل والشرب. ولَمّا فرغنا من الطعام، وقف رجل كان يجلس في الصف الآخر إلى يسار حماتي، ليلقي كلمة، فيما بدا. خُيِّل إليَّ لأوَّل وهلة- أنني أراه لأوَّل مرّة، في حياتي، ثم خُيِّل إليَّ، مرّةً أخرى، أنني سبق أن لمحت هذا الجبين البارز والحاجبين الغريزين والفكّين القويّين، ولكن، أين؟ أو متى؟. وملت نحو الهانم الجالسة إلى جانبي، وسألتها عنه، فقالت:

رجل طيب يقدّم نفسه في الأفراح طلباً للرزق!

وركَّزت عليه بصري، باهتمام لا يخلو من قلق، أمّا هو فراح يقول بصوت جهير:

سيِّداتي .. آنساتي.. سادتي،

«للفرح يوم واحد، لا يتكرَّر، مهما تكرَّر، وهو من صنع الرحمن لا البشر،

من أجل أسمى غاية وهي عمران الوجود، فالزواج طاعة، والحبّ عبادة، إذا حاد أحدهما عن طريقه ضلَّ إلى الأبد، وفي مثل هذا اليوم، تسجِّل الحياة أحد انتصاراتها الرائعة، فلنهنِّئ العروسين، ولنُخْيِ ذكرى ربَّي أسرتهما النبيلة: آدم وحواء، اللذين دُفعا إلى دنيانا بسبب العصيان، ورُفعا منها بحكم الغفران، ولْنَدع الله أن ينصرنا على إبليس، عدوّ الأسرة القديم الذي لا يكفّ عن طلب الثأر، والعقبى لكم في المسرّات».

وأحنى الرجل رأسه؛ شكراً للتصفيق الذي أعقب كلمته، ثم جلس. وكاد ذاكر الثأر يفسد عليَّ ليلتي، لولا لباقة عروستي التي جذبتني لنجواها. وانفضَّ الحفل الصغير على خير حال، ومضيت بعروسي إلى شقّتي، ولكن استعصى عليّ أن أُدخل المفتاح في عروة الباب. ماذا حدث؟ وفُتِحت شراعة الباب عن وجه، لم أتبيَّن معالمه، سألني قبل أن أفيق من ذهولي:

من أنت؟

فصرخت فيه:

مَنْ أدخلك شقّتي؟

فصاح الرجل بغضب:

سكران!.. مجنون!.. اذهب قبل أن أكسر دماغك.

ادَّعى كلّ منا أن الشقّة شقَّته، وأن الآخر مُعْتدٍ أو مُعْتدٍ ومجنون، ولم أجد بدّاً من الاستغاثة بالشرطة. ولكن، أين عروسي؟ هل بادرت إلى أخيها؟

ولم أحبّ أن أضيِّع الوقت في البحث عنها، فذهبت إلى قسم الشرطة، واصطحبني ضابط إلى الشقّة، واطَّلَع على العقد، ثم صارحني بأنه لا يستطيع أن يتعرَّض للرجل بسوء، وأن الأمر يجب أن يُعرَض على النيابة، وتكشف التحقيق عن غرائب وعجائب: أثبت الرجل أن الشقّة شقّته بعقد قديم، وشهد معه صاحب العمارة والبوّاب، وكثرة من السكان. واستشهدت بعروسي وآلِها الذين فرشوا الشقّة بأيديهم، وأدلوا بشهادتهم القاطعة بأنهم لا يعرفونني، وأنني لم أتزوَّج من ابنتهم. وماذا يقول الذين لبّوا دعوة العشاء، وشهدوا الزفاف؟!.. ماذا تقول الهانم، والطبيب، والبك؟ أجمعوا على أن أقوالي ادِّعاءات باطلة، لا أصل لها، وأنهم لا يعرفونني، ولم توجد بينهم وبيني أيّ صلة. ولعلّ الوحيد الذي لم ينكرني، والذي جاء دون دعوة مني، هو صاحب الخطبة، سمعته يقول للمحقّق إنه أخي الأكبر، ويرجو أن يذهب بي لأعالَج من تلك الحالة الطارئة!

ودخلت في شبه غيبوبة، لا أدري كم غشيتني، ولا متى انقشعت، ولكني أنتبه، أحياناً، إلى وجود أخي إلى جانبي، وأحياناً أخرى، أعي إقامتي في مصحّة الطبيب بحلوان. وبعودتي إلى ذاتي، أدركت أنني مريض، وأنني أعالَج، وأن الطبيب يعالجني بالعقاقير والكهرباء. ولمّا خاطبت أخي، في شئوننا الخاصّة، هتف الرجل بسرور:

الحمدلله، ها أنت تعود إلى الواقع. ولكن علاجي امتدّ طويلاً، وجالسني الطبيب كثيراً، حتى آنست إليه، وأسَرَني بذكائه وإنسانيَّته. وفي آخر مرّة، قال لي:

أعتقد أنك على أتمّ ما يكون من الشفاء، الآن، فوافقته بتسليم وصبر، فسألني:

ما حقيقة علاقتك بأخيك الأكبر؟

فأجبت بهدوء ويقظة، ودون أيّ إرهاق:

إني أقيم معه في شقّته بالعمارة، وهو زوج وأب، وذو ميول دينية واضحة، ولا يكفّ عن حضّي على الزواج، رغم الظروف المعاكسة، ولم يرَ بأساً من أن أتزوَّج من جارتنا الأرملة، رغم أنها تكبرني بأعوام، ولكنها تملك الشقّة وبعض المال، ولم أذعن لمشيئته؛ لنفور قلبي من المرأة، ولارتيابي في استقامة سلوكها. لا أنكر عطفه عليَّ ونصاعة خلقه، ولكنه طالما وقف من سلوكي موقف الناقد طويلاً، بل الرافض.

ولمّا سألني عن عروسي، ضحكت طويلاً، وقلت:

كانت زميلتي في الكلِّيّة، أحببتها وكأنها كانت تزن مستقبلها بميزان العقل، فأثبتت لي، بمنطق واضح حادّ، أنني غير صالح للزواج، أي غير قادر عليه، وفضلاً عن ذلك فقد صارحتني بأن أهلها يصرّون على اختيار زوج لها من طبقتها.

وسألني عن الهانم، فقلت:

عرفتها من خلال عملي بوزارة الشؤون الاجتماعية، كرئيسة لإحدى الجمعيات الخيرية، بهرني جلالها وقوّة شخصيّتها ورقّة إنسانيَّتها،

وأقررت لها بأنها تملك، من المزايا، ما يؤهِّلها لحكم أمّة حكماً عادلاً سعيداً، ولم أجد بها من عيب إلّا زواجها من «البك» الذي كان أدنى منها كثيراً في العلم والخلق.. وقال الطبيب:

أمّا أنا، فلا شكَّ أنك عرفتني عن طريق التلفزيون.

- بالضبط، وأعجبت بأسلوبك في معاملة مرضاك، باعتبارهم ضيوفاً.

تبقى مسألة القتل والثأر، فهل لك أعداء؟

فقلت ضاحكاً:

بدأت المسألة بالمجاز، يقول أخي لي، في شتّى المناسبات، أنني عدوّ نفسي، وإنه يجب أن أحذر العدو الكامن بين جوانحي، وأقول له إنه يوجد أكثر من عدوّ يتربّصون بنا الدوائر.. وإلّا فكيف تفسِّر هذا الانهيار الشامل؟!

وهزَّ الطبيب رأسه، وهو يبتسم، ثم قال:

وفي حوارنا المتَّصل الطويل، لمست انفعالك الشديد حول قيم كثيرة، كالعلم والعمل والسعادة، أيرجع ذلك للأسباب التي ذكرتها؟

فقلت بحدّة:

ليس ذلك فحسب، لكني أذكر، دائماً، دراستي الجامعية الضحلة العقيمة، وبطالتي التي أمارسها في الوزارة، والسعادة التي أحلم بها، دون جدوى.

- ورحت تكمل ما ينقصك بأحلام اليقظة، حتى أشرفت على الضياع الذي

أنقذت منه بمعجزة، فقلت خاشعاً:

بفضلك، يا سيِّدي.

وخرج أخي عن صمته، فقال:

وبفضل الله، قبل كلّ شيء.

فقال الطبيب:

حدِّثني، الآن، عن الدرس الذي أفدته من أقامتك القصيرة في مصحَّتي؟

فقلت بحماس:

إن أحلام اليقظة غير مجدية!

النشوة في نوفمبر

(مجلّة الدوحة - يوليو 1986)

النشوة في نوفمبر

لدى خروجه من مملكة النوم الغامضة، تلقّى وحدته. أمس، والآن، و-ربّما- غداً، بلورة الوعي المتثائب. وطاف حنينه بأجواء غريبة حبيبة: الولد في بلجيكا، والبنت في سنغافورة، ورفيقة العمر تحت الثرى. لكنه يستقبل الصباح الباكر، بارتياح وبشر.

نوفمبر ذو برودة حانية. يغادر الفراش، يتناول الروب من فوق المشجب، ويلتف به، ثم يذهب إلى حجرة السفرة ليجد الشاي والجبن والشهد والتوست المحمَّص في انتظاره، على أحسن صورة.

عبده عجوز نشيط، رغم طعونه في السنّ، وهو سعيد- حقّاً- بالجبن والعسل: الجبن الدمياطي الأبيض، والعسل البائح بشذا البرتقال. يحبّ منظر إبريق الشاي الفضّي وأوعية اللبن والسكّر والأطباق الصغيرة المزخرفة. يركِّب طاقم أسنانه، ويقبل على الإفطار بشهيّة. لم يعد

يضيق بالوحدة، كما تعوَّد على الحياة بعد السبعين. صحّة لا بأس بها، بوسعها أن تهنأ بالهديّة إذا جادت بها السماء، على غير انتظار هديّة جميلة حقّاً، قلبت موازين الزمن. وشحنت الدقائق والساعات بالوعود المسكرة. وعندما ارتدى ملابسه، بدا في بدلته الصوفية نحيلاً طويلاً، أبيض الرأس والشارب، خفيف التجاعيد. ووجد الشارع أمام العمارة مغسولاً متألِّقاً، ترى، هل أمطرت، بعذوبة، في الليل؟

وانبسطت السماء بين هامات العمائر، تسبح فيها السحب البيضاء في زرقة عميقة صافية. انشرح صدره، وتحفَّزَ للَّهو، رغم موعد الطبيب المضروب. وطبيبه- أيضاً- على المعاش، ويستقبل مرضاه خلال ساعتين أو ثلاث، في نصف النهار الأوَّل. وبسبب من بعض الأمراض المزمنة – القلب، مثلاً – تنشأ صداقة بين المريض والطبيب، على مدى الزمن. تصافحا، جلس أمام مكتبه الحافل بالمراجع وقوارير العيِّنات، حتى تساءل الطبيب:

خيراً؟

- وَجَبت الزيارة بعد غياب أشهر.

وخلع جاكتته، ومضى إلى الفراش وراء البرافان، ففكّ حزام البنطلون، واستلقى على ظهره، وفحصه الرجل بعناية، مستعيناً بأصابعه المدرَّبة، ومقياس القلب والضغط. وفي أثناء ذلك، جعل يعلِّق على الأحداث السياسيّة المثيرة، فضحك الرجل الراقد، وتساءل:

حتى متى يحلّ لآمالنا الكلام في السياسة؟

فأجابه الطبيب، وهو لا يكفّ عن الفحص:

حتى تختلّ الذاكرة، فتعفينا من قرفها. كيف حال ذاكرتك؟

- نحمده، ولكنها فقدت مزايا، لا يُستهان بها.

- على فكرة، الدواء الذي تواظب عليه ينفع- أيضاً- للذاكرة.

وارتدى ملابسه، وعاد إلى مجلسه الأوَّل أمام المكتب، وأخرج من جيب الجاكتة الصغير مشطاً، فسوّى به شعره الأبيض الذي تشعَّث، وقال الطبيب:

بصفة عامّة، الحالة طيِّبة، لا تغيير في الدواء ولا إضافة، وعليك بتجنُّب الانفعال.

- نصيحة ثمينة ومستحيلة!

- لا أعني الانفعال وحده!

- أفندم؟

ابتسم الطبيب ابتسامة ذات مغزى، وقال:

- أنت تزعم أنك مازلت قادراً على الحبّ؟

- ولكني عجوز أرمل!

- عظيم.. واظب على ذلك.

فهزَّ رأسه موافقاً أو متظاهراً بذلك، فقال الطبيب ضاحكاً:

صحَّتك أحسن من صحّتي

غادر العيادة مطمئنّاً. وقال لنفسه إن نشوة رقيقة خير من حياة عامين بلا نشوة، وابتسم داخله. أحمق أم حكيم؟زَرِب أحمق حكيم.. ورُبَّ حكيم أحمق. من يرفض هديّة سقطت من السماء سهواً؟ وحام خياله، وهو في السيارة، حول التجربة الجديدة؛ تلك الجارة المحترمة، في الأربعين أو جاوزتها بقليل، غاية في النضج والجاذبية. كيف؟ ولماذا أثار اهتمامها؟ لن يجد عند المنطق جواباً، ولكنه اهتمام مذهل، فلم يستطع أن يقاومه. يقاومه؟: هوى من حصنه، دون أدنى مقاومة. وَهَبَته نشوة فاقت جميع انتصارات الحياة. ذاق انتصارات المناصب والثراء والزواج الأرستقراطي الموفّق والبنوّة الفريدة. هذا الانتصار يفوق سابقيه جميعاً، ولعلّه لم يفقد حسن إدراكه، فهو يشعر بأنه لا يحبّ. إنه لا يحبّ كما أحبّ في الماضي البعيد؛ ما هو إلّا تعلُّق بأهداب الحياة، آخر نظرة للشمس قبل الغروب. وهل نسي أنه نبذ فرصة متاحة، وهو في الخمسين، رافضاً أن يخون رفيقة عمره؟ ولكن الاستهانة بالفرصة الأخيرة جنون، جنون لا يغتفر. وانزلق، في رعونة، إلى الحلم، بتبادل الإشارات خلسةً.. وينتظر في قلق.. ويسعد باللقاء.. ويتغنّى بالعواطف

كالأيّام الخالية. بل افترض- أيضاً- أنها امرأة ذات خطّة وغرض، ومكر ودهاء، فلم يثنه ذلك عن الاندفاع، ورأى العدل، كلّ العدل في أن يؤدِّي ثمن ما ينال. غير أن الأيّام تمرّ، ولا تبدي هي إلّا الودّ، وتهَب الحرارة والصدق، دون أيّ مقابل. فليصدِّق إذن، أو فليصدِّق، وليوطِّن نفسه على أيّ نكسة، ولو أنه كاشَفَ طبيبه نفسه بما يفعل لاقتنع، بل- لربّما- حسده على جميل حظّه. لذلك، لم يكبح تحذير الطبيب إصراره واندفاعه. وانطلق مساء اليوم نفسه إلى عشّها، ونسي في رحابه هموم الحياة وهواجسها، وامتلأ فؤاده بالرضى والراحة والسرور. طيِّبة ورقيقة ومستجيبة، ولله في خلقه شئون! يقول لها:

توجد أماكن صباحية غاية في الأناقة والعزلة، فتقول:

الستر أوجب.

فيقول متمنِّياً:

ليتني أرجع إلى الوراء ثلاثين عاماً.

فتقول باسمة:

ولكني أحبّك، كما أنت!

أحياناً، يصدِّق ولا يصدِّق، أحياناً. في فترة الجفاف، تنبثق له وردة مشتعلة الأوراق، ويتوقّع مفاجأة لا تريد أن تقع، ويتمادى في لهفة وراء

النشوات، حتى شعر، ذات صباح، أنه في أشدّ الحاجة إلى لقاء طبيبه. لم يستطع أن يغادر فراشه، وكان ذا خبرة سابقة. وجاء الطبيب، وراح يفحصه بعناية، وهو يقول:

انقطعت عني مدّة غير قصيرة.

لاذ بالصمت، أو أُجبر عليه. وفرغ الطبيب من فحصه، فقال:

أزمة بسيطة، ولكن الأفضل أن تنتقل إلى المستشفى، ما رأيك؟

أجاب بصوت ضعيف:

كما تشاء.

هناك، ستجد كلّ ما يلزم، وسوف أرتِّب كلّ شيء، و-إن شاء الله- تستردّ صحّتك في أقرب وقت.

أشكّ في هذا..

ليس الأمر بالخطورة التي تظنّ.

- بل هو خطير، حقّاً

- سوف أذكِّرك.

وتردَّد الطبيب قليلاً، ثم قال باسماً:

يبدو أنك لم تعمل بنصيحتي!

فقال، وهو يسدل جفنيه:

ولست نادماً على ذلك.

الفهرس

الرجل الثاني 5

«خمس قصص» 11

خطة بعيدة المدى 25

يوم الوداع 69

الفجر الكاذب 77

النشوة في نوفمبر 81

صدر من سلسلة كتاب الدوحة

1	طبائع الاستبداد	عبد الرحمن الكواكبي
2	برقوق نيسان	غسان كنفاني
3	الأئمة الأربعة	سليمان فياض
4	الفصول الأربعة	عمر فاخوري
5	الإسلام وأصول الحكم - بحث في الخلافة والحكومة في الإسلام	علي عبدالرازق
6	شروط النهضة	مالك بن نبيّ
7	صلاح جاهين - أمير شعراء العامية	محمد بغدادي
8	نداء الحياة - مختارات شعرية - الخيال الشعري عند العرب	أبو القاسم الشابي
9	حرّيّة الفكر وأبطالها في التاريخ	سلامة موسى
10	الغربال	ميخائيل نعيمة
11	الإسلام بين العلم والمدنية	الشيخ محمد عبده
12	أصوات الشاعر المترجم - مختارات من قصائده وترجماته	بدر شاكر السياب
--	فتنة الحكاية جون أيديك - سينثيا أوزيك - جيل ماكوركل - باتريشيا هامبل	ترجمة: غادة حلواني
13	امرأتنا في الشريعة والمجتمع	الطاهر حداد
14	الشيخان	طه حسين
15	ورد أكثر - مختارات شعرية ونثرية	محمود درويش
16	يوميات نائب في الأرياف	توفيق الحكيم
17	عبقرية عمر	عباس محمود العقاد
18	عبقرية الصدّيق	عباس محمود العقاد
19	رحلتان إلى اليابان	علي أحمد الجرجاوي/صبري حافظ
20	لطائف السمر في سكان الزُّهرة والقمر أو (الغاية في البداءة والنهاية)	ميخائيل الصقال
21	ثورة الأدب	د. محمد حسين هيكل
22	في مديح الحدود	ريجيس دوبريه
23	الكتابات السياسية	الإمام محمد عبده
24	نحو فكر مغاير	عبد الكبير الخطيبي
25	تاريخ علم الأدب	روحي الخالدي
26	عبقرية خالد	عباس محمود العقاد
27	أصوات الضمير	خمسون قصيدة من الشعر العالمي
28	مرايا يحيى حقي	يحيى حقي
29	عبقرية محمد	عباس محمود العقاد
30	عبدالله العروي من التاريخ إلى الحب	حوار أجراه محمد الداهي
31	فتاوى كبار الكتّاب والأدباء في مستقبل اللغة العربيّة	
32	عام جديد بلون الكرز (مختارات من أشعار ونصوص مالك حداد)	ترجمة: شرف الدين شكري
33	سِراج الرُّعاة (حوارات مع كُتاب عالميّين)	خالد النجار
34	مقالة في العبودية المختارة (إيتيان دي لابويسيه)	ترجمة: مصطفى صفوان
35	عن سيرتَي ابن بطوطة وابن خلدون	د.بنسالم حِمّيش
36	حي بن يقظان - تحقيق: أحمد أمين	ابن طفيل

37	الإصبع الصغيرة - ترجمة: د.عبدالرحمن بوعلي	ميشال سار
38	محمد إقبال - مختارات شعرية	محمد إقبال
39	تزفيتان تودوروف (تأمُّلات في الحضارة، والديموقراطية، والغيرية)	ترجمة: محمد الجرطي
40	نماذج بشرية	أحمد رضا حوحو
41	الشرق الفنان	د.زكي نجيب محمود
42	تشيخوف - رسائل إلى العائلة	ترجمة: ياسر شعبان
43	إلياس أبو شبكة "العصفور الصغير"	مختارات شعرية
44	لماذا تأخر المسلمون؟ ولماذا تقدم غيرهم؟	الأمير شكيب أرسلان
45	مختارات من الأدب السوداني	علي المك
46	رحلة إلى أوروبا	جُرجي زيدان
47	المُعتمدُ بنُ عبَّاد في سنواته الأخيرة بالأسر	د.عبدالدين حمروش
48	تاريخ الفنون وأشهر الصور	سلامة موسى
49	من أجل المسلمين	إيدوي بلينيل - ترجمة: عبداللطيف القرشي
50	زينة المعنى (الكتابة ، الخط ، الزخرفة)	يوسف ذَنّون
51	الواسطة في معرفة أحوال مالطة	أحمد فارس الشدياق
52	النخبة الفكرية والانشقاق (تحـوُّلات الصـفـوة العارفة في المجتمع العربي الحديث)	د. مُحسن الموسوي
53	ياسمينة وقصص أخرى	إيزابيل إيبرهاردت
54	آباي (كتاب الأقوال)	ترجمة وتقديم: بوداود عمير
55	مأساة واق الواق	ترجمة: عبدالسلام الغرياني
56	بين الجزْر والمدّ (صفحات في اللغة والآداب والفنّ والحضارة)	محمد محمود الزبيري
57	ظلّ الذّاكرة (حوارات ونصوص من أرشيف «الدوحة»)	مي زيادة
58	الرحلة الفنّية إلى الديار المصرية (1932) تحقيق: رشيد العفاقي	قسم التحرير «مجلّة الدوحة»
59	قيصر وكليوبترا	أليكسي شوتان -تعريب: عبد الكريم أبو علو
60	الصين وفنون الإسلام	إسماعيل مظهر
61	براعمُ الأمل (مُختارات شِعْريّة للكاتب الصيني وانغ جو جن)	ترجمة: مي عاشور
62	التّوت المُرّ	محمد العروسي المطوي
63	درب الغريب	غونار إيكليوف
64	من والد إلى ولده	أحمد حافظ بك
65	التلـــميذ	بول بُورجيه
66	ملحَمة جلجامِش	تقديم وترجمة: طه باقر
67	أريجُ الزّهر	الشيخ مصطفى الغلاييني
68	اعترافات إنسان	محمّد فريد سيالة
69	مريود	الطيب صالح
70	عبدالله كنون	المقالات الصحفية

صدر في سلسلة كتاب الدوحة

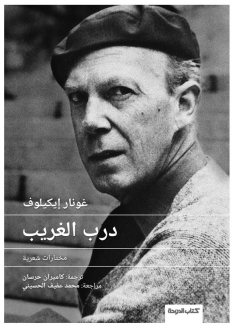

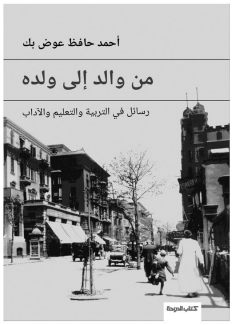

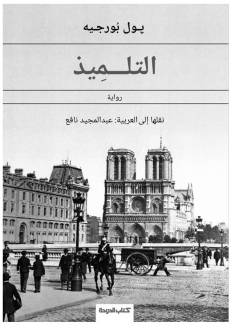

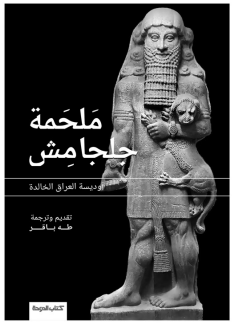

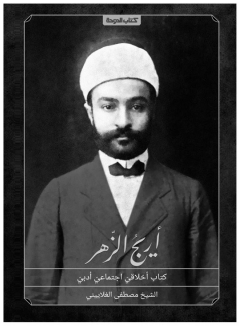

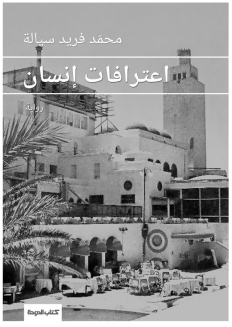

يمكنكم تصفح النسخة الإلكترونية من كافة إصدارات السلسلة
على موقع مجلّة الدوحة الإلكتروني www.aldohamagazine.com